قصص

وجدان أبو محمود

نحت

الآن ناشرون وموزعون
ALAAN PUBLISHERS & DISTRIBUTORS

الجمعية العُمانية للكتّاب والأدباء
THE OMANI SOCIETY FOR WRITERS & LITERATI

اتحاد الكتاب العرب - دمشق

نحــت

وجدان أبو محمود

نحت (قصص)

وجدان أبو محمود (كاتبة من سوريا)

الطبعة العربية الأولى 2024

© حقوق الطبع محفوظة

الآن ناشرون وموزعون

عمّان–الأردن

alaan.publish@gmail.com

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

المدير العام: د. باسم الزعبي

الجمعية العمانية للكتاب والأدباء

مسقط ـ سلطنة عُمان

omani-writers@hotmail.com

هاتف: 96824346753+ / 96824346754+

واتساب: 96892561500+

طبع بموجب اتفاقية التعاون الثقافي بين اتحاد الكتاب العرب في سورية والجمعية العُمانية للكتاب والأدباء.

اتحاد الكتاب العرب - دمشق

المراجعة اللغوية: آمال الديب

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مُصنفه ولا يعبّر هذا المصنّف عن رأي المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

رقم الإيداع في سلطنة عمان: (2023/6094)

ISBN: 978- 99969-911- 3- 4

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية الأردنية: (2023/12/6558)

وجدان أبو محمود

نحـــت

قصص

توطئة

أكتب بالإزميل والمطرقة، أسعى بدأبٍ للمس شكلٍ واضحٍ للدَّاخل النَّاصع الذي بُنيت عليه مدائنُ اللَّحم والعظم، أستعينُ مراراً بالكفوف المعقَّمة والملاقط الدَّقيقة والمجاهر المخبرية لفصل الشَّرّ العالق بجسد الحياة كالحلوى الذَّائبة، الشَّرّ الملتبس المتنكِّر والذي لا يجيءُ واضحاً مظلماً إلا في الكتب، أكتبُ بالمشرط لأُحلِّلَ مفردة «الجميع» الهائلة إلى عواملها البسيطة الخفيفة الأوَّليَّة، أكتبُ بقلبي لأتمكَّنَ من سماع الدَّقَّة النَّاعمة الأولى في صدر العالم الميِّت.

في هذا الكتاب... بعضي.

دانتيل أحمر

لمْ تجلسْ وحدها مرةً إلا ورَغِبَتْ أنْ تتبخَّرَ، أنْ تستحيلَ بخطفَة عينٍ إلى جسمٍ أثيريٍّ خفيفٍ، لَمْ تُفَكِّرْ في الأمر يومًا كأمنيَةٍ وإنَّما كحقيقةٍ موازيةٍ لتجارِب الخروج من الجسَدِ، حقيقةٍ ممكنةِ الحدوث «كما يؤكِّدُ من عاشها» لولا التصاق جسمها بروحها بطريقةٍ لَمْ تجدْ لها أيَّ تفسيرٍ، إنَّها حتَّى لا تستطيعُ تخيُّلَ الأمر من دون أنْ تنبُتَ لها قدمان أو أنْ تستطيلَ ذراعاها فجأةً ذاتَ اليمين وذاتَ الشِّمال، جسدها سجَّادةُ لحمٍ لا نهائية من حاجيات الأولادِ... نهنهاتهم... ضحكاتهم... أدويتهم... ألعابهم... أكلاتهم المفضَّلة، ومن طلبات زوجها... آلامه... سعلاته... مزاجه... همومه... ذوقه، ومن الغبار والبهارات وتضاريس الأرضيات والأثاث، اتَّضحَ لها أنَّ الأجسادَ عمومًا تلتصقُ بأرواحها تبعًا لعدد المشابك اللامرئية، تلكَ التي تتكاثرُ في حياتها كالطَّحالب... بلا انتهاءٍ.

لطالما أقنَعتْ نفسها بأنَّ كلَّ من تراهم ساهمينَ أو جالسينَ بغفلةٍ خلفَ شبَّاكٍ أو تحت شجرةٍ إنَّما يبحثونَ بطريقةٍ ما عن مساقط لهم في عوالمَ أخرى، أثيريةٍ، ولربَّما خياليةٍ، ولكنَّها بالتأكيد عوالمهم الحقيقية، أكثر بكثير من تلك المادية التي يتنفَّسون فيها السُّهادَ والقلقَ والمشاكل.

إنَّها ببساطةٍ تسْويَاتُ الحياةِ، تربِّي الأولادَ بمفردها، تأكلُ وتنامُ وحيدةً، فزوجها «حارسٌ ليليٌّ»، تشاهدُ الأفلامَ العاطفيةَ دونَ خليلٍ وتعيدُ

ارتداء الثوب المريح ذاتِه كلَّما غَسَلَتْه، فزوجها «حارسٌ ليليٌّ»، كَفَّتْ عَنْ طلب المغازلات لتتفادى نظرةَ اللَّومِ، زهدتْ بتمنِّي الملاطفات والعناقات الخاطفة كي لا تثيرَ السُّخط، تنازلتْ عن رغباتها في إطلاق النِّكات والممارسات الطِّفلية «جلابَة الفرح» درءاً للمشاكل والانتقادات، إلى أنْ غَرِقَتْ في الاستسلام حتَّى أُذُنيها، إلى أن حدث في يومٍ منَ الأيَّام وجاءَت اللَّوحةُ...

منَ المرآة للوَّحة، منَ اللَّوحة للمطبخِ، من المطبخ للأولادِ، من الأولاد للمرآة، توقَّفَتْ أمامها طويلاً، رَفَعَت شَعْرَها المتَهَدِّل، مَسَحَتْ بِكُمِّها بلَّورها المُغَبَّش، لاحَقَتْ بإصبعها خطوطَ التَّعب والتجاعيد المخفية، حدَّقَتْ فيها بذهولٍ وكأنَّها تلمحها للمرَّة الأولى، فكَّرَتْ فجأةً بالفضَّة السائلة، يرشُّونها ببودرة النحاس فتصبحُ أداةً سحريَّةً خالقةً، تكوِّننا من جديدٍ في كل تلاقٍ سريعٍ بيننا وبين صورنا الجديدة تلكَ التي لا تشبهنا بالضَّرورة، ماهرةٌ تلكَ البارقةُ في ابتداع إيقاعاتٍ جديدةٍ للمشاهد ذاتها، بارعةٌ في الإظهار والإخراج وإعادة التكوينِ، هي لا تعرفُ ما الذي يَرِنُّ فيها بالضَّبطْ كلَّما اصطدَمَتْ بفضَّتها، ذاكَ الذي يرنُّ يرجُّها بعنفٍ إلى أن يُخرجَ منها صوراً وأوجهاً وعطوراً وأصواتاً وأشياءَ غالباً ما لا تُحَسُّ... إلى أن يُسْقِطَ منها آخرَ دمعةٍ، المرآةُ تقولُ:

«ساقاك جميلتان... عُنُقُك صقيلٌ كسطح بحيرةٍ ساكنةٍ منذُ الأزلِ... والوميضُ المنبَعِثُ مِنْ عينيك هادئٌ لكنَّهُ يضجُّ بالكثير».

المرأةُ تقول:

«أنت لا تتحدَّثينَ عنِّي».

المرآةُ تقولُ:

«صدِّقيني».

اللَّوحةُ حرَّضَت المرآة، والمرآةُ لَمْ تَعُدْ تَسْكُتُ.

اللوحة خلَّفها أحدُ المستأجرين في عمارةٍ يحرسُها زوجها، الحيِّزُ الفانتازي الوحيدُ بينَ حوائطَ مشدودةٍ... متوتِّرةٍ... وشديدة الواقعيَّةِ، دخلَ بها في تثاقلٍ، لحظةَ أنزلها عن كتفيه شَهَقَتْ، وأخْفَتْ عينيها بمئزر المطبخ لتسترَ عريَ الفتاة؛ تلكَ النَّائمة بينَ ذراعي رجلٍ يرتجفُ في ملابسه الشتوية الثَّقيلة، فاحتْ رائحةُ الفانيليا دونَ مقدِّماتٍ من مئزَرِها، ومن اللوحة انداحَ عبيرٌ منعشٌ لَمْ تَألَفْهُ من قبل، برطمَ رجُلُها والسِّيجارةُ المتوهِّجةُ عالقَةٌ بين شفَتَيْهِ:

«لمْ ينْسَهَا... أؤكِّدُ لكِ... لوحةٌ بهذا الحجم لا تُنسى... صح؟؟ ... دقِّقي مجدَّداً... تركَها عنْ عمدٍ لا عنْ عجلةٍ تماماً كما يُخلِّفُ الميسورونَ وراءَهَمْ أشياءَهُم التِّي ملُّوا منها أو ضاقوا ذرعاً بها».

هي لم تطلب منه تبريراً على الإطلاق، فجزءٌ ليس باليسير من حياتهم يقومُ على الأُعطيات ومخلَّفات الراحلين من ثيابٍ ومعلَّباتٍ وصحونٍ ووسائدَ ودمى تالفة، لكنَّها المرَّةُ الأولى التي تشهدُ فيها دخول ما يمكنُ أن يُدرج تحت مكمِّلات «الرفاهية» لا «الاحتياج» إلى منزلها الذي بالكاد

يحملُ قاطنيه. لَمْ تعلِّقْ بحرفٍ، لم ترمش، كانَتْ مأخوذَةً بالجديد الدَّاخل على بيتٍ لا كتُب فيه ولا صور ولا تُحَف ولا تماثيل صغيرة، لم تُصَدِّق أنَّهُ لم يبعها ليشتري حليباً للصَّغير، ربَّما كان سكرانَ، علَّقها في ركنٍ قصيٍّ بغرفة نومهما، بعدَ ذلكَ راحتْ تختلسُ إليهما النَّظرَ كلَّما غادرَ الزَّوجُ أو غفا الأولاد، العاشقان اللذان احتلا حجرتها، يتكلَّمان بلا صوتٍ، يتغامزان، يتعانقان دونَ تماسٍّ «لا شكّ في أنَّهما الحياة الأخرى لزوجٍ من البائسين» بهذا واستْ نفسها أوَّل الأمر، وبمرور الوقت بدأتْ تستعذبُ إطالةَ الوقوف أمامَ المنظر لا منتهي الحرارة، حيثُ تقدحُ الخيالاتُ وتَمُورُ كلَّ يومٍ بالمزيد، اللوحةُ لمْ تبقَ جامدةً، راحَتْ تُشْعِلُ ناراً صغيرةً في كل زاويةٍ من المنزل البارِدِ، توقِظُ المُكدِّرات المنسيَّةَ، تُذَكِّرُ باللحظات الباهتةِ، وتهبطُ في بدنها تماماً كالأمنيات اللذيذة، حرَّضَتْ فيها أعراضاً غريبةً... خفقاناً... ضيق نفَسٍ... ألماً في الحلقِ.

الزَّوجةُ التي ترتجفُ عادةً من نسائم الصيف أدمنتْ مع الوقت الجلوسَ قبالتَها لتتدفَّأ.

كانت اللُّوحةُ بوَّابةَ النَّشوةِ التي لم تكتشفها من قبل، فتَحَتْ أعينَ الستائر والملاءات وحُمرَة الخد منتهية الصلاحية، كانت ثورةً حقيقيَّةً نسفتْ رضاها عن أي شيءٍ وعنْ كل شيءٍ، فالوهجُ الذي ملأ عينيها، أثقلهما، إنَّهما تنزفان الآن ناراً.

***

ما حاجة المرأة إلى شعرٍ طَويلٍ إنْ لَمْ يَضْفُرهُ زوجُها بكفَّين حانيتين! ... إنْ لَمْ تَغُصْ أصابعهُ فيه أمشاطًا تُسَرِّحهُ وتقلبهُ إلى أغانٍ، وإلى أي شيءٍ تنظرُ الزَّوجةُ في العناق إنْ لم يكنْ هنالكَ عينان تتوهَّجان في نهاية نظرتها الطَّويلة: «لا همَّ لكَ إلا إطعامنا، لا نريد أنْ نأكل، هنالكَ ما هو أكثرُ تعويضًا عن الطَّعام... اجلس وراقبْ طفلكَ وهو يكبر... صفِّقْ لطفلَتكَ وهيَ تكتبُ اسمها لأوَّل مرَّةٍ».

هكذا انفجَرَتْ به عندما ابتأسَ إزاءَ شعرها المقصوص، اعتقد لوهلةٍ أنَّ ثمالتهُ قد شوَّشَتْ على أذنيه، فاستعاد شفته التي تدلَّت من ذهولٍ، ونفضَ كلماتها من رأسه، لَمْ تَقُصَّهُ نكايةً كيما يبرأ من إعجابِه المستفيض بـ«مارلين مونرو»، وإنَّما لأنَّها تمنَّتْ أنْ يلومها، أنْ يؤنِّبها، أرادَتْ بشدَّةٍ أنْ تنفجر، كانَتْ فرصتها لتشكو وتعترض وتبكي وتكسرَ الإناءَ الخزفيَّ دونَ أنْ تُصَرِّحَ عن السَّبَب.

صرخت، صرخ، غضبتْ، غضب، ملَّت، ملَّ، هدأت، هدأ، بعدَها انتهَت المناهدَةُ بتسويةٍ مريحةٍ، سألَ بتعبٍ:

– ماذا تريدين؟

– لا تذهبْ.

غَرِقَ في قهقهةٍ طويلةٍ، لم تُمَكِّنْهُ من النُّطقِ، استدارَ وهوَ يُلَوِّحُ بيدِهِ، رجتْهُ بنبرةٍ مَخنُوقَةٍ:

– هذه المرَّةَ فقط... لستُ على ما يُرام.

لكنَّهُ لَـمْ يَلتَفِـتْ، أطْلَقَـتْ صـرخةً مكتومـةً، تركَهـا خلْفَـهُ تتكسَّـرُ قطعـةً قطعةً، غابَ مخلِّفـاً همهماتِه في الهواء كدوائر دخانٍ متداخلةٍ: «مجنونـة.. مجنونـة»، تنهنهـتْ دونمـا بكـاءٍ، فاضَـتْ عيناهـا بـالألَم، ابتلَعَـتْ دَمعهـا، فتَسَرَّبَ طعمُ الملح إلى أحشائها، أحْكَمَتْ قَبْضَتَها على دميـةٍ بلاستيكيةٍ صغيرةٍ، فتحطَّمتْ كالقَشِّ بينَ أصابعها الثَّائرة.

***

من شقَّة رجلٍ مهمٍّ خرجَ مغتاظـاً، شاحبـاً، كانَ يدمدمُ بشتائمَ متقطِّعـةٍ، بصقَ مراراً في الهواءِ، بدا كتلةً غاضبةً تهتزُّ في نزقٍ، كانَ هنالكَ إهانةٌ مخفيةٌ على شكل ندبةٍ في الحنجرة، وأُخرى أكثرُ وضـوحـاً... مـا زالـتْ تكـبر... تمتدُّ... وتنهشُ وجههُ بلا رحمةٍ، دخلَ غرفَتَهُ المحاذيـة للبوَّابَة الحديديـة المزخرفة، تهادى في حنقٍ، كأنَّهُ ظلٌّ ضخمٌ للمصباح الكهربائي، ترنَّحَ فيما شياطينُ الغضب والنَّقمة تحفُّ به من كـل جانـبٍ، خـارَتْ قـدماهُ، سَـكبَ الخمر في كأسٍ فارغٍ، أشعل سيجارةً، وارتمـى فـوقَ سـريرٍ يصـرُّ بانتظـامٍ، شاهدَ أولادهُ يتساقطونَ من السَّقف، دعكَ رأسَهُ، تمالَكَ وعيهُ، وحدَّق في صاحبه مخاطبـاً إيَّاهُ بنبرةٍ مبحوحةٍ:

«أن تحيا يعني أنْ تتعذَّب».

تنهَّدَ بعمقٍ، عبَّ ما استطاعَ من الغيبوبةِ، ثمَّ استأنفَ الشَّكوى:

«أتعلم... مجرَّد كونكَ إنسانـاً فهذا يعني أنَّكَ كئيبٌ بالضَّرورة، الزَّعل هـو القـوَّة الرَّهيبـة التـي تُخْلَـقُ مـن العـدم ضـاربةً بعـرض الحـائط قـوانينَ

الفيزياء أجمعها، الرَّغباتُ التافهة التي لا تتحقَّق هي حزن، الفشل حزن، الفقر حزن، العجز حزن، الوحدة حزن، الذِّكريات البعيدة حزن، الأحلام البعيدة حزن، هل تعلم كم حزنـًا يجبُ أنْ يتراكمَ فيكَ لتغدو إنسانـًا...؟».

تملَّاهُ وكأنَّما لا يراه، أجابَ بالنِّيابة عنه:

«جبلٌ بارتفاع قلبك».

رفعَ قدميه على طاولةٍ وطيئةٍ، مَسَّدَ ذقنهُ الشَّائكةَ التي لَمْ تُحلقْ منذُ عامٍ، استرخى، فانتظَمَ نبضُهُ من جديدٍ، رشفَ من الكوب رشفةً طويلةً، ثمَّ سَلَّمَ لسانَهُ زمامَ القيادة، أَذِنَ له بتسريب هواجسهِ... تلكَ المتناقضة... المتباعدة وكأنَّها رُقَعٌ لَمْ يجمعها سوى ثوبِ الصَّوت الواحد:

«كنَّا صغاراً وكنَّا نصدِّقُ حكايات الغيلان والعفاريت، كبرنا بسرعةٍ هائلةٍ وبتنا نراها كلَّ يومٍ، أصبحنا نحنُ الغيلانَ والعفاريت، انظرْ أنتَ مثلاً إلى جسمك وفكِّر، لكن لا تنظرْ بعينيك».

تملَّى جيَّداً رفيقهُ الذي لمْ يُفكِّر ولمْ ينظر، قاسَ لا مبالاتهِ، فاطمأنَّ وأدركَ أنَّ بمقدوره الكلام كما يشاء، أكملَ بلسانٍ أثقل من المعتاد:

«لو تعلمُ الزَّوجاتُ الباحثاتُ عن الفرح يا صاحبي أيَّ سخطٍ يتسبَّبنَ به حينما يطلبونه من أزواجٍ تُعساءَ بالفطرة، وأيَّ ملحٍ يذرونَ بحزنهنَّ في الجراح الغائرةِ، يحذِّرونكَ في الكتب من طلب الشَّيء ممَّن لا يملكه، لا يحدِّثونَكَ عن الضَّغط الذي سيحدثهُ الأدرينالين فيهِ، لا يقولونَ لكَ إنَّكَ ستتسبَّبُ في انفجارهِ، ستثقبُ مخَّهُ بطريقةٍ ما، الجلطةُ الدماغيةُ وحدها

تحصدُ حياةَ خمسة ملايينِ إنسانٍ كلَّ عامٍ منَ الموجودينَ فوقَ سطح الأرض، هل فكَّرتَ لماذا تصيبُ الأمراضُ الخطيرةُ البائسينَ والخائبينَ والخائفينَ فقط؟ هل فكَّرْتَ مرَّةً بأسباب الموت القلبي المفاجئ! ذلك الذي يحدثُ بلا مقدِّماتٍ نتيجةَ عدم الاستقرار النَّفسي ومهما كانت العنايةُ الطبيةُ مُشَدَّدةً... مهما كانَ الإسعافُ متقدِّمًا، هل فكَّرتَ أنْ تسألَ الأطبَّاء عن هذي الظَّاهرةِ النَّاميةِ بشكلٍ هيستيريٍّ في العالم كلّهِ؟ طيِّب.. هل فكَّرتَ لماذا تحدثُ أكثر من ثلاثة أرباع الوفيَات بأمراض القلب في البلدان منخفضة ومتوسِّطة الدَّخل تحديداً؟ لن تجيبَ كعادتك... لنْ تفهمَ مثلي ما الذي يضمنُ استقرارَ عمل القلب في هذا الكوكب اللَّعين».

رفعَ الكأسَ عاليًا وهتَفَ بأحرفٍ مُقْشَعِرَّةٍ:

«موضوعُ الموت يزدادُ تشويقًا... بصحَّتك».

تبدَّدَ صديقهُ الوهمي مع آخر نفسٍ من سيجارته العاشرة، لم يبقَ من وجوده سوى أضغاثِ هَذَرٍ وضبابٍ شفيفٍ يتأرجَحُ بين الخيال وبينَ اليقين.

***

بَعْدَ ساعتين هاتَفَها، أخبرها أنَّهُ سيعود، دارت حولَ نفسها كالعصفورة، زقزَقَت بصوتٍ عالٍ، ولملَمَت حُطَامَ الدُّمية، تكَحَّلَت، تَعَطَّرَت، ثُمَّ غاصَت في الخزانة، وخَرَجَت مِنْها بثوبٍ ليمونِيٍّ شفَّافٍ موشَّى بِتِرْتِرٍ لامعٍ... مزدانٍ على الخصر بدانتيل أحمر، لمْ يُثْنِها ضيقهُ عن

ارتدائهِ، جلبت المقصَّ وعدَّةَ الخياطة وقليلاً من الصَّبر والمهارة، بعدَ أقل من عشر دقائقَ كانَ الثَّوبُ الخفيفُ يتدلَّى على جسدها بأفضل ممَّا كان.

لوَّنَت الإنهاكَ البادي عليها، غطَّتْ حزنها ببسمةٍ دافئةٍ، انتَظَرَتْهُ قُرْبَ شَمْعَةٍ مُشْتَعِلَةٍ، على بُعْد كرسيين منْ بابٍ أحكمتْ إغلاقَ مزلاجه، لا شيءَ في الخارج إلا نباحُ الكلاب ومواءُ القطط العاشقة واصطخابُ الشَّجر في مواجهة الرِّيح، جاءها في آخر اللَّيلِ، تنَامَتْ إليها خُطْواتُهُ الثَّقيلةُ، أعقبَ ذلكَ طرقاتٌ خفيفةٌ، ثمَّ صريرُ بابٍ يُفتَح، فاصطَنَعَتْ بشيءٍ من دلالٍ إغفاءةً عجلى، أَيْقَظَها بنكزتين من سبَّابتهِ، وسَعْلاتٍ متقَطِّعةٍ، وافاها صوتُهُ الأجشُّ بكلِمَتين ثقيلتين: «أنا جائع»، قاستهُ بنظراتها، ثملٌ كالعادة، فظٌّ كالعادة، عضَّتْ على شفتِها، تظاهَرَتْ أنَّها لَمْ تَستنشق رائحته، تظاهرَ أنَّهُ بكامل وعيهِ.

حضَّرت العشاءَ، تَسَرَّبَتْ رائحةُ الحساء خارجَ النَّافذة، استعَرَت الكلابُ والقطط، تعمَّدَت المرورَ كثيراً قبالتهُ، تمايلَ خصرُها الممشوقُ أمامهُ بغنجٍ، زادَتْ من تلفُّتها... تعثُّرِها... تبَسُّمها... انحنائها... دورانها، ناوَرَت اهتمَامَهُ الباهتَ، زَيَّنَت الأطباقَ على طريقة طاهٍ شهيرٍ، لكن ما هي إلا دقائق حتَّى اختَفى الطَّعامُ والزِّينة، سَقَتْهُ الدُّواءَ بملعقة الشَّاي كالأطفال، لاحَقَتْ أَصابعهُ الملولة تُحرِّكُ السُّكَّر في كوب النعناع، أحاطتهُ بعينين ساهمتين تومضانِ، ذابَ السُّكَّرُ في قلبهِ، شملَها بنظرةٍ فاحصَةٍ لا

تخلو من الحنان، حطَّتْ نظرَتُهُ على قلبها، فخفقَ، ارتعدَ، ضبطَتْهُ يختلسُ النَّظَرَ إلى عنُقِها كما لم يفعل من قبل، أطالَ التَّحديقَ فيه، شَعَّتْ ملامحهُ فجأةً بشغفٍ غير معتادٍ، شغفٍ لذيذٍ... محيِّرٍ.... متلاطمٍ... راعفٍ، حاولتْ أنْ تميِّزَ صحوهُ من عدمه، لكنْ ما لبثَتْ أنْ نسيت الأمر، ما عادَ يعنيها السَّبَبُ، تغلغلتْ في السِّحر الذي أحاطَ بنأماتهِ، فسَرَتْ فيها رجفَةٌ خفيفةٌ، تقافز قلبها فرحًا، حافظَتْ على المسافة بينَ أجفانها، لم تشأ أنْ ترمشَ أو تفوِّتَ «كِسْرَةً» من اللحظة، لاصقتهُ، توسَّدَتْ ذراعَهُ، انتَظَرَتْ مسحةَ عطفٍ تنهالُ على شَعْرِها، ترقَّبتها بفارغ الأملِ، شعرَتْ بها تقترب، لكنَّها لم تقترب، زمَّتْ شفَتَيْها، سألتهُ على استحياءٍ: «ماذا؟»، خيَّمَ الصَّمتُ للحظات، أعقَبَتْهُ همهمةٌ ناجمةٌ عن احتكاك صوته بانتظارِها، زفرَ أنفاسَهُ بحدَّةٍ بينَ الكلماتِ:

– لا شيء، أُفكرُ بأمرٍ صغيرٍ سخيفٍ... سخيفٍ للغاية.

– حقًّا؟! يا إلهي لو تعلمُ ما تفعلهُ الأمورُ الصغيرة، إنَّها تُغَيِّرُ وجهةَ الحياة الكبيرة وطعمها أيضًا.

حدجها باستهجانٍ، ثمَّ آبَ إلى نبرته الفاترة:

– ربَّما... وتحدثُ الكوارثَ أيضًا.

– لا أشهى من الكوارث حين تبعثرنا وتعيدُ ترتيبنا في كل مرّةٍ تخلخلنا المشاغل فيها.

– اسمعيني جيِّداً لَنْ أخوضَ في المقدِّمات لكنْ يبدو أنِّي مضطرٌّ لأخذ العُقد.

سادَ الصَّمتُ للحظةٍ، اعتَدَلَت تتقَّفى مقصَدَهُ، تطلَّعَت إليه برقَّةٍ، سألَت بأخفَض صوتٍ لديها:

– أيُّ عُقدٍ؟

– وهل تملكينَ غيره؟ ... الرَّجل الذي نسيَ اللوحةَ اتَّهمني بسرقتها، لم أخبرهُ أنَها عندي، خفتُ أنْ تثبتَ التُّهمةَ عليَّ، قلتُ لهُ إنَّي كحارسٍ مسؤول عمَّا يُفْقَد ووعدتُ بتعويضه.

– وبعد؟

– وبعد؟! ثمنُ اللوحة أكثرُ بكثيرٍ مما ستتوقَّعينه.

– وتريدُ العُقد لتبيعه...! وتدفع ثمنها!

– تماماً... وأعدكُ بتعويضك إن بعتُ اللوحة.

تنفَّسَتْ وكأنْ كل أُكسجين الهواء، ابتلَعَتْ نفسَها مع الرِّيق الحارقِ، فالعُقدُ الذي ورثتهُ عن أُمِّها كانَ الشَّيء الوحيدَ الذي ملكتْهُ في حياتها كلِّها، علقَت الابتسامةَ مجدَّداً بينَ شفتيها اليابستينِ، استَجْمَعَتْ كلماتها وقَالَتْ:

– حسناً... طيِّب... كما تشاء لا أريدكَ أنْ تُعَوِّضَني ولا أن تبيعَ اللوحة.

– هذا ما انتظرتهُ منكِ.

– وهل عدتَ يا عزيزي لأجل ذلكَ؟

– نعم.

شدَّتْ ثوبها فوقَ ساقيها المطويتين على الأريكة، شعَرَتْ بتمزُّق الدَّانتيل الأحمر وكأنَّهُ قطعةٌ من جلدها، غَطَّتْ جيداً ركبتها المثنية، وتمترسَتْ في عينين غائمتين وغائبتينِ، ابتَسَمَتْ لهُ، فابتسَمَ لها، وانجرَفَ بصَرُها المنهكُ نحوَ البعيد.

عندما ذهبَ بالعُقدِ، لَمْ تُغْلِق خلفهُ مزلاجَ البابِ، قَبَّلَت الأولاد كالعادة، تسمَّعَت إلى أنفاسِهِمْ... نبضاتِهِم، غَطَّت أَرْجَلَهُم، وَهَّدَت فراشها الشَّاسع، نزعَتْ مشبكَ الشَّعر، حاولَتْ أنْ تُرسِلَ روحها إلى مكانٍ ما، لكنَّها لم تفلح، فجسدها الضَّئيلُ لا يزالُ شديدَ الالتصاق بأحلامها، ضَمَّتْ قَبْضَتَها إلى صدرها، استجمعتْ قواها... طاقتها... ابتهالاتها... حماقاتها، وقرَّرتْ، صَعِدَت اللَّوحةَ، دخلتها حافيةً، دسَّتْ جسَدَها بينَ الحبيبين ونامت.

في صباح اليوم التَّالي رجعَ كعادته بعَيَنين شبه مفتوحتينِ، وخطواتٍ قصيراتٍ مترنِّحاتٍ، بَحَثَ عنها كثيراً، ناداها وكفُّهُ على قلبهِ، فتَّشَ عن جسدها في كُل ركنٍ في المسكن الموحشِ، لكنَّهُ لم يعثر عليه، كلُّ ما وجدهُ منها... كانَ ثوباً ناعماً، رقيقاً، ومنكمشاً على نفسِهِ.

قطعةُ لحم

نبتتْ في داخلي قطعةُ لحمٍ، لم يحدثْ ذلك فجأةً، تطلَّبَ الأمرُ الكثيرَ من ترويعي، وتهديدي، وصفعي، وزرع الخوف على جلدي وفي لساني وتحتَ مخدَّتي.

كنَّا سبعةَ أبناءٍ لأبٍ فقيرٍ يبدِّلُ عملاً كلَّ يومٍ، ولأمٍّ خرساءَ لا تستطيعُ السَّيطرةَ علينا بغير الضَّرب، كانت الغرفةُ الباردةُ بيتنا كلَّه، عندَ اللَّيل نتقاسمُ زواياها الرَّطبة، فترفرفُ فوقنا الأغطيةُ التي ترميها لنا الوالدةُ بخفَّةٍ، نغلقُ عليها أعيننا، وينزلقُ كلٌّ منَّا إلى بيته الجوَّاني الكبير، هنالكَ حيثُ العتمةُ تصيرُ مروجًا من العشبِ، ألعابًا وأراجيح، طعامًا شهيًّا، لباسًا جميلاً، وأزواجًا لا نهائيةً من أحذيةٍ لامعةٍ مريحةٍ، كانَ اللَّيلُ لذيذاً، لهذا غالبًا ما كنَّا ننامُ باكراً، اعتدنا أنْ نفيقَ مهدودين لكثرة شقلبتنا في علبة الخيالات، فينطلقُ الكبارُ منَّا إلى عوالمهم الواقعية... غسلِ السَّيَّارات... بيعِ الجوارب، ويهربُ أصغرنا إلى الخارج خلاصًا من الجمرات في عيني والدتنا المتورِّمتين دائمًا، أمَّا أنَا فقد كنتُ الرَّقم «4»، الأوسط اللامنتمي إلى أيٍّ من الفريقين، الغاضب دومًا، العابس دومًا، والرَّافض للجميع.

لم ينجح أهلي بإخراجي من المدرسة، شكوتُهم للمختار وللإدارة ولو لم أطردْ من مكتب الوزير لكنتُ فعلت، لا أفعلُ شيئًا في البيت، لا

أُلبِّي احتياجات أُمِّي، لا أكترثُ لوجودها حينما تطلبُ منِّي أنْ أتزحزح كي تكنس تحت قدمي، هكذا أقضي أيَّامي، متحجِّراً مثلَ تمثالٍ خلفَ النَّافذة الوطيئة، أتحمَّلُ الدخانَ المتصاعدَ من أبي كلَّما أشعلتهُ أمِّي بإيماءاتها الشَّاكية، أتحمَّلُ انبجاسات كفِّه الثَّقيلة على جسدي، لكنِّي لا أتحمَّل إطلاقاً فراقَ نافذتي، كانَ يُهيَّأ إليَّ أنِّي زجاجُها العاكس أو صريرُ مفاصلها الصَّدئة، وكنتُ مفتوناً بالمنظر الثَّابت الذي لا يتغيَّر، بيتٌ فارهٌ تحفُّهُ أشجارٌ ساحرةٌ تخفقُ كالمظلات، على شرفته منزلٌ ملوَّنٌ كمنازل الأقزام، يخرجُ منهُ نباحٌ لطيفٌ، ثمَّ كلبٌ منمنمٌ بشعرٍ منفوشٍ كالغيوم، يكفي أنْ يدور على نفسه مرَّتين حتَّى يُهرعَ إليه صبيٌّ أشقر، في الدُّورة الثَّالثة تخرجُ أختهُ السَّمراء، من جيوب ثيابهما النَّظيفة التي يبدِّلانها يوميّاً تطلعُ طيَّارةٌ زرقاء وبالون أحمر وأشياء غريبة لم أرَ مثلها في حياتي، المهم... كنتُ أنا اللاعب الثَّالث... والأخ الثَّالث... والقائد في كل معركةٍ ضدَّ الكلب الشقي، هذا ما كنت أتخيَّلُه، هذا ما كنتُ أُصدِّقهُ، في الحقيقة لقد كنتُ أبتكرُ نسخةً موازيةً من كل ما ألمحهُ عندهما، فمخدَّتي كلبٌ والقنينةُ الفارغةُ طيَّارةٌ زرقاء والمنديلُ بالونٌ أحمر وأشياءُ منزلِنا كلُّها هي ذاتهُا أشياؤهما البديعة التي لم أرَ مثيلها في حياتي.

جميعُنا كنَّا نخاف، من ذنوبٍ لم نرتكبها، من كلمات لم نقلها، كانَ أحدنا يشعرُ أنَّ صرخةً ما قد تخرجُ من عينيهِ، لهذا كنَّا نتحاشى تحديقةَ الوالد التَّشريحية، تلكَ التي تقولُ لنا دائماً: «أرى بوضوحٍ ما في

رؤوسكم»، كنَّا نجهدُ في عد الأيَّام الصَّعبة، نودِعُها في حصَّالات صدُورنا، نصلِّي يوميّـًا وبشتَّى الطُّرق كيما تمتلئ سريعـًا، نصلي لنكبرَ أسرع.

وفي يومٍ استيقظتُ على رائحة شواءٍ، خلتُ أنَّ قلبي يحترق، لكنَّ الدُّخان كان يتلوَّى خلفَ النَّافذة، والدُ الطِّفلين كانَ يلوِّحُ بصينيةٍ فوقَ أسياخ اللَّحم الممدَّدة أعلى الفحم المتَّقد، القطعُ اللَّذيذةُ كانتْ تطيرُ إلى أفواههم بأجنحةٍ شفَّافةٍ... الصبيِّ والبنتِ والكلبِ الذي لم يهدأ حومانُ ذيلهِ، بقايا الصَّابون الملوَّن لم تنفع لتكونَ بديلاً، الحصوات في جيبي أيضـًا لم تصبح لحمـًا، استجمعتُ شجاعتي وهتفتُ في أُذن أمِّي: «أريدُ لحمـًا»، جحظتْ عيناها لوهلةٍ، ورأيتُ نظرتهَا الغريبةَ تتكسَّر على فمي، لكنَّها سرعان ما شَغَلتْ نفسها وكأنَّها لم تنتبه، أخي الذي يخبِّئُ في دميتِه مالاً من مبيعاته لم «يقرضني»، وأبي الذي فاجأهُ طلبي قهقه حتَّى الثمالة قبلَ أنْ يغرقَ في موجة غضبٍ إثرَ تعقيب أُختي: «لا يعملُ مثلنا، ولا يسمعُ الكلام، وتضحكُ له»، وكيما يثبتَ لها عدالتهُ علَّقني من قدمي بحبل الأرجوحة، ومع احتقان الدَّم في وجهي، وانقلابه إلى لونٍ شوندريٍّ لم تنقصني الشَّجاعة لأتمتم: «قطعة لحم صغيرة... لم أطلب لبن العُصفور»، الوالدُ الذي لم يفهم همهماتي، تملَّى ترنُّحي أمامهُ كالخفاش، رماني بوسادةٍ لأتأدَّب، ثمَّ أومأ لأُمي مع تثاؤبٍ طويلٍ أن «أنزليه».

في اليوم التَّالي كان من المفترض أنِّي نسيت الأمرَ برمَّتهِ، حينما أيقظتُ والديَّ بعبارةٍ قطعيةٍ: «لن أذهب بعد اليوم إلى المدرسةِ... أُريدُ العمل»،

نهضَ أبي كالعملاق، نظرَ في عينيَّ متوجِّساً، تمترسَ في وضعية الصَّقر ثمَّ همهم رافعاً أحد حاجبيهِ: «لن تعمل... ستذهب إلى المدرسة التي صرعتَنا بها ورجلكَ فوق رأسك»، طبعاً يومها لم أذهب، وطبعاً عوقبت بشتَّى الوسائل، والغريبُ أنِّي تحاشيتُ الدنوَّ من النَّافذة، كنتُ أشعرُ بنوعٍ مريعٍ من الانهزام، ولأنِّي لا أستسلمُ بسهولةٍ فقد فعلتُ كلَّ ما يمكنني فعله، استعنتُ بإخوتي مجدَّداً، سألتُ رفاقي المساعدة، قصدتُ اللَّحَّام ليبيعني بالدَّين، وحيثُ إنَّ مساعيَّ قد باءت أجمعها بالفشل فقد أحسستُ بشيءٍ ينتأ داخل صدري، شيءٍ جديدٍ أحاطَ به خيالي حتَّى أدركَ كنهَهُ... لقد كان قطعةً منمنمةً وحارَّةً جدّاً من اللَّحم.

طوال الأيَّام التَّالية لم يلحظ أهلي انقلابَ عاداتي، لم يشم أحدُهم رائحةَ الشواء المنبعثة منِّي، فقط لاحظوا أشياء غريبة في المنزل؛ اختفاء الطَّعام، ضياع الجوارب الجميلة، سرقة القطع النَّقدية التي يخفيها بعضهم عن بعض، حتَّى جاء اليوم الذي زارنا فيه بابا نويل، رئيس الجمعية الخيرية الذي يتنكَّرُ كلَّ عامٍ بالزِّي الأحمر، ليتمكَّن من إعطائنا الهدايا دون أن نكون مضطرين أن نقول له: «شكراً»، نحنُ أيضاً كنَّا نمثِّلُ عليه أنَّ الهدايا هي حقُّنا فلا نقولُ أبداً: «شكراً»، نبتسمُ فقط، وندخلُ مسرعين لنفتحها، يومئذٍ اختفت الهدايا قبل أنْ نفتحها، قالتْ أختي الصُّغرى وهي تنشِّفُ دموعها بكمِّها: «ما كان علينا أنْ ننشغل بالعشاء»،

قال أخي الأصغر متحسِّراً بعدما احمرَّ أنفهُ البارد: «لو رأينا ما في داخلها فقط».

ليلتها نامَ الجميعُ بعد مناوراتٍ طويلة مع النعاس، إلا أنا، لقد كمَّمتُ فمي بيديَّ كي لا أُخبرهم بالحقيقة، كي لا أضعف فأخبرهم أنَّ قطعة اللحم قد كبرت! كبرت كثيراً... وصارتْ وحشاً، وحشاً لا يسعني الوقوف في وجهه، وحشاً يأكلُ طعامهم وهداياهم وأحلامهم وأوهامهم... وحشاً كبيراً كبيراً كبيراً يريدُ بشدَّةٍ أنْ يأكلهم!

نحت

كانَ حجرَ صوَّان، قاسي الملامح، أصمَّ القلب.

كانت حجرَ صوَّان، صلبة الإرادة، ملساء الذَّاكرة.

وكانت أعينُ المعذَّبينَ حولهما بنادق ملقَّمة تنتظر.

التقيا، فاحتكَّ الصوَّانُ بالصوَّان، خرجت النَّارُ من النَّظرة الواحدة، شبَّتْ في هشيم المسافة الطَّفيفةِ. النَّارُ التي لوَّنتْ وأحرقتْ صهرتْ في اللَّحظة الواحدة الملمحَ الحجريَّ في وجهيهما، فأشرقت من تحته الرُّوح الجذوة، بذبولها ورقَّتها وندباتها وجراحها نصفُ المخيطة.

لم يسأل: «كيف حدث هذا؟!».

لم تسأل: «لماذا حدث؟!».

اكتفيا بمشاهدة الرَّماد يتطايرُ منهما، ظنَّتْ أنَّها تتلاشى، أجزمَ أنَّهُ يذوب، بيديها غطَّتْ عينيها كي لا يشعشع النُّور العجيب، بجسارةٍ أشاح بوجهه كي لا يفضحهُ مخروط الضَّوء الذي لاحقهُ بانضباطٍ وخفَّةٍ كإنارة مسرحٍ ثقيلةٍ ومتخفِّية، تابعَ موظَّفُ الحراسة لدى المنظَّمة السَّامية تنظيم الدَّور، قالَ أحدُ المنتظرينَ أمامَ شادرٍ ممهورٍ بشعار الأمم المتَّحدة لرفيقه المهدود:

– طابور النِّساء يستطيلُ في كل يومٍ وطابور الرِّجال ينحسر.

- الرجال يموتون ببساطة لأنَّهم لا يأخذون الأشياء على محمل الجدِّ... سيأتي يومٌ وننفد.
- تقصدُ أنَّ النساء مراوغات؟
- إنَّهنُ مقاتلات أشرس يا رجل، الحياةُ عندهنَّ سلاسل لا نهائية من الاندثارات والولادات من التَّمزُّق والتَّكسُّر والتَّجمُّع والتَّخلُّقِ، يستحيل أنْ يُهزمنَ بالموت من جولة أولى.

لم يتوقَّف الثَّلج، لكنَّهُ اعتقدَ ذلكَ حينما التفتَ إليها، كانَ ليقسمُ أنَّ النُّدفَ المترنِّحةَ أمامَ غرَّتها القصيرة وأنفها المحمر وتلك العالقةِ برموشها الغامقة ما هي إلا بتلاتُ ياسمينٍ تفرطهُ يدٌ عليا، يدٌ امتدَّتْ من حيثُ لم يحسب لتنحتَ في داخله داخلاً جديداً لهُ معنى.

تكسَّرَ السُّورُ العالي حولَ قلبه الدَّرويش، سمعَ صوتَ الانهيارات المتلاحقة، شعرَ بأحجارِه الصَّلدة ترتطمُ بيباس أضلعهِ، كائناتهُ الجوَّانية المخيفة بدأتْ تركضُ في كل الاتجاهات، تهاطلتْ على قاعه الملحيِّ زخَّاتٌ من حممٍ... غَسَلَت... وطهَّرَت... وعطَّرت... وأحرقت... وأضاءت... وخلقَتْ.

كانتْ تعلمُ أنَّهُ ينظرُ إليها، وأنَّ هشاشتها تترنَّحُ أمامهُ عاريةً تماماً، تنفَّسَت مساماتها وكأنها لأوَّل مرَّةٍ عبَّتْ شهيقاً زاخراً بهباب مواقد الحطب البائسة، زفرَ جلدُها الملفلفُ دقَّاتِ قلبها سُحباً من عَرَقٍ خفيفٍ، رأتهُ بالعين الجديدة التي نبتتْ في الوشاح السَّميك المتهدِّل عن رأسها،

ميَّزَتْ كاليقين هالة الذَّهب التي حوَّطَتهُ في تحنانٍ، وهي التي لم ترتعش يوماً من البرد شعرت بالرَّجفة تتنقَّلُ في أوردتها كما الخثرة، رنَّحها الوجعُ السَّيَّارُ ما بينَ الصَّحوة والسَّكرة، أحسَّتْ بما دارَ خلفها من نزاعاتٍ، سمعتْ كل الشتائم، ولمحتْ لفيفاً من نسوةٍ يتسلَّلنَ، يزحزحنها، ويندفعنَ ليأخذنَ دورها المطمع، حاولَتْ أنْ تُكشِّرَ عن أنيابها، لكن إزميل الضِّياء العجيب كانَ قد هدمَ كلَّ الزَّوائد غير الآدمية... الأنياب والمخالب والقرون والأظلاف، كانتْ قد تساقطتْ منها كشجرةٍ تتجدَّد، وجهها المصفرُّ صارَ ورديّاً، وكفَّاها المثلَّجتان استحالتا مجمرتينِ، تطلَّعَتْ إليه بنصف التفاتةٍ، استرقتْ نظرةً خاطفةً، تملَّتْ فيها خطوط الثَّنيات على زاوية عينه، تلك التي أشرقت مع الشَّمس المنعكسة فوق بياض الأرض شمساً أكثرَ إبهاراً، فكَّرَتْ لهنيهةٍ بوجهها: «تُرى كيفَ يبدو؟!»، خَطفَتْ نظرةً إلى فوق، سألَتْ مرآة خياليةً كانت قد تلألأتْ فجأةً في الفراغ، وعلى عادة المرايا التي لا تجيب، اكتَفَتْ بعكس قلبها، فخفقت الرِّيحُ، وخفقت الخيامُ وخفقَ الشجر، بسمتها الواهنة لم تقوَ على التَّمَدُّد، تلمَّسَت ما بانَ من شعرها الرَّطب، شدَّت السُّترة الرجالية المسروقة على جسدها بقوَّةٍ، وطأطأتْ رأسها في خفرٍ.

استغربَ نفسهُ... هو الذي كانَ ذئباً قبلَ قليل، مادت الأرضُ بهِ، توقَّفَ عن الدَّفع والنَّهش والقنص والمنافسةِ، تخلخلَ موقعهُ، تجاوزهُ في سلاسةٍ المحاربونَ الأشدَّاء، ارتختْ عضلاتُ جسده بالكامل، لم يَعد

يريدُ من الأمم المتَّحدة بطَّانيةً، لقد اغتنى برمشة عينٍ، فهو الهامش السُّفليُّ لحيوات الآخرين وجدَ نفسهُ دفعةً واحدةً ممتلئاً بشروحاتٍ لمفرداتٍ لم يحسب قبلاً أنَّها موجودةٌ بالفعل.

التقت الأعين مجدَّداً، هذه المرَّة اختَفَت الأشياءُ الثَّانوية من حولهما... النَّاس والثَّلج والمكان والشِّعارُ الأزرق على الخيام والشَّوادر، تطاير الشَّررُ من المطارق والأزاميل في العمقَيْن البعيدين، أبنيةٌ شاهقةٌ انبثقَتْ في الصَّدرين الأجوفين، أبراجٌ من كهرباء عاطفية لا اسم لها، جبالٌ باسقةٌ من ضعفٍ جليلٍ، الجمالُ الشَّاهقُ خرجَ من الأحداق شُهباً وفسقيَّاتٍ من كواكبَ ناريةٍ، أيقنَ فجأةً كم كانَ وحيداً من قبل، أدركَ أنَّهُ وجدها تلكَ التي خَرَجَتْ من خيالاته الشعرية العتيقة، تولَّى قلبهُ التَّفكير فامتثل، تساءلَ معهُ... ما الذي كان ليخسره العالم لو التقاها منذ سنواتٍ خلتْ؟! حينما كانَ إنساناً له بيت وعمل وثياب مكوية وذقن حليقة وشعر ممشَّط وكرامة!! الكلمةُ التي كادَ ينطقها وقفتْ في زورهِ، اختنقَ بذلِّ هيئتهِ، اعتصَرَ القوَّةَ الثَّائرةَ في صدرهِ، وطأطأ على مهلٍ مثلها.

وقعَ عصفورٌ متجمِّدٌ من أعلى غصنٍ في شجرةٍ لكنَّ أحداً لم يكترث، الأبخرةُ المتصاعدةُ من الأحاديث والأنفاس العميقة بدتْ أشبهَ بقطعٍ زجاجيةٍ تتصارعُ في الهواء، تقدَّمَ الطابوران، وتراجعَتْ إلى الخلف طقطقةُ الأزاميل، سألتْ سيِّدة عجوزاً تتعكَّزُ على مرفقها:

– ألم تتعبي؟!

- أتحمَّلُ بعد.
- الموتى اليوم سبعة.
- قدْ أُكملهم لثمانية.
- أبعدَ الشَّر عنكِ، الطَّوابير قاتلة، تحرِّكُ غريزةَ الجريمة... ألسنا أولاد قابيل!
- ليست الطُّوابير من تفعل، إنَّه الظُّلم.

هنالكَ من انهزمَ مع الوقفة الطَّويلة بعضَّة بردٍ فتراجعَ وانسحب، أمَّا المستدفئان بيدٍ تحفرُ بيتها في عمقهما الصَّخري فقد استسلما معًا لمشيئتها: «هذا حب؟!» سألتْ نفسها، «هذا ألم» ردَّ قلبها المضطرم، «شبيهان جدّاً يا الله... لا فرق». واستْ قواها الرَّاشحةَ بتفسيراتٍ مبتدعةٍ، ضمَّتْ نفسها، وكعادتها عندَ الملمَّات... لم تبكِ.

في مقدِّمة طابور النِّساء وقفت الطِّفلةُ التي ستموتُ مزهوَّةً، قدماها العاريتان ملفوفتان بعدَّة طبقاتٍ من أكياس النَّايلون السَّوداء، كانتْ تحضنُ أرنبًا محشوّاً، فروهُ كانَ أسمك وأحن من ملابسها الرَّقيقة، لم تكنْ تعلمُ أنَّهُ من يتدفَّأ بأنفاسها حينَ ترنَّحتْ بغتةً وسقطَتْ، والدها في الطَّابور المقابل أسقطَ البطَّانيةَ التي بالكاد استلمها، وانقضَّ نحوها كالوحشِ، رفرفتْ صرختهُ في الأعلى، صارتْ أظافرهُ سكاكين، اتَّهمَ امرأةً بدفعها، زوجُ المرأة المتَّهمة أيضًا انقضَّ صوبهُ كالوحش، كلُّ وحشٍ ولَّدَ

وحشـاً مقـابلاً كالصَّـدى، اشـتبكَ الطَّـابوران معـاً، عـلا الصُّـراخُ، تـدافعَ النَّاقمون، وأُغلقتْ في وجه البربرية المتجدِّدةِ... نافذةُ الأمم المتَّحدة.

بعضهم هرب، وبعضهم أسعفَ الطِّفلةَ والعجوز المنهـارةَ بعـدها، وفي الثَّلج خبَّ الخاسرون ينهش بعضهم لحمَ بعض، وانتقلتْ أرضُ المعركة بأقدام المحتشدين المقتتلين إلى الأمام... إلى الأمام.

شدَّتهما اليدُ العاليةُ إلى الخلف، قاومتْ بهما خسارتها الفادحة، ثبَّتتهما لتكمل إنجاز الصرحين، غيرَ أنَّها لمْ تجدْ وقتئذٍ ما تنحتُهُ، حتَّى الصُّـخور العميقةُ انهارت، تفتَّتت، تطـايرتْ كأنَّهـا لـم تكـن، النَّظـرةُ القدسيةُ جفَّـتْ فجأةً في الأحداق الجامدة، اليدُ التي شلَّها المشـهد، وجـدتْ نفسـها أمـام هيكلين خاويين تلهو بهما الرِّيحُ والخيالاتُ اليتيمةُ الوفيرة.

العائـدون مـن تمزيـق بعضـهم بعضـاً اقتلعـوا مـن الأرض الجثَّـتين الجديـدتين المثلَّجتين، حـاولوا إغمـاض أعينهمـا المفتوحـة لكـنَّهم لـم ينجحـوا، لـم يسـألوا أبـداً إن كـان مـن الطَّبيعي أن يمـوتَ البشـرُ واقفـين، الحارسُ وحدهُ شغَّلَ كـاميرا الجـوَّال، والـتقطَ الصُّـورة التـي ستشـغلُ بـال العلماء والأطبَّاء والمهتمِّين في الجانب الحي من الكوكب.

بعـد ذلـكَ اليـوم لـم يمـتْ أحـدٌ في المخـيَّم، لا الـبرد ولا الجـوع ولا المرض ولا القهر المؤبَّد سجَّلَ في الأشهر التَّالية أيَّ انتصارٍ، فيزياءُ الثَّلج تغيَّرت، حسبَ النَّاسُ أنَّ سحراً لفَّ المكان، لم يعلم أحـدٌ أبـداً... أنَّ يـداً مكلومةً قد قبضتْ على الموت المحوِّم، ومن غلِّها... خنقته.

مُهرِّجٌ في شارع المشاهير

نحنُ بداخل صفحةٍ، أنا وأُمِّي والمدينة، تقليبُ الورق هو التَّأثيرُ الوحيدُ الواقعيُّ، أمَّا زئيرُ الرِّيح وحفيفُ أوراق الشَّجر ولمعةُ قوس الألوان الذي بدأ بالتَّكاثف على هامة الجبل البعيد فما هي إلا ترتيباتٌ لإعادة المشهد كلَّما فُتِحَ الكتاب.

أُشمِّرُ عن زنديَّ، أدعكُ العجينَ المختمرَ، أسمعهُ يقرقعُ كالنَّغَم تحتَ يديَّ المتورِّمتين، أُقطِّعهُ، أفردهُ، أرقُّهُ، أُطوِّحهُ في الهواء بخفَّةٍ، فتنتشرُ حبيباتُ الطَّحين وكأنَّها غبارُ الذَّهب، أُداعبُ الرَّغيفَ اللَّيِّنَ المطواع، أُشقلبهُ وكأنِّي مُؤدٍّ على مسرحٍ، أزجُّهُ في الفرن الحامي، فتتعالى رائحةُ الخَبيز الشَّهية، أُنشِّفُ عرقي بينَ كلِّ خَبزتين، ولأستريح أتكوَّرُ في وضعيةَ القرفصاء على العتبةِ، أُنقِّلُ نظري بينَ السيَّارات الفارهة وهي تعبرُ من أمامي كالعارضات الحسناواتِ، أُفتِّشُ بعينيَّ عن أحدٍ يسيرُ على قدمين في شارعٍ يَعتبِر سكَّانهُ بالغو الثَّراء استخدامَ الرِّجلين سلوكًا لافتًا كالتَّدخين داخلَ مشفى، أتطلَّعُ إلى أعلى، إلى أُذنيه تسمعان ضجيجَ سكوتي، وإلى عينيه تسبران نفسي، وتقشِّران سريرتي كالبرتقالة، أستشعرُ تشنُّجَ سبَّابته التي تُتابعُ عن كثبٍ مجرى الأحداثِ، تُنفِّرني وهي تقطعُ كلَّ حينٍ تدفُّقَها، فترجعُ بتثاقلٍ لتنبطحَ مجدَّداً فوقَ كلمة «الشَّهية»، تتحسَّسُ معناها النَّافر، تتحسَّر، وتطبقُ الكتابَ في غلٍّ على رأسي.

لستُ بخبَّازٍ ولا أبي كان، أنا مجَرَّدُ عبدٍ على هيئة موظَّفٍ، عشتُ لأعمل أعمالاً إداريةً غبيةً لا يمكنُ لعاقلٍ أنْ يُحبَّها، أشتغلُ ثُلثي النَّهار لأتمكَّنَ من معالجة والدتي وشراء طعامنا، الطَّعامِ الذي يسندني في الثُّلث الأخير كيما أقوى به على العمل مجدَّداً، كنتُ راضياً معلقاً في هذه الحلقة إلى أنْ طُردْتُ، هكذا ببساطة ومن دون سببٍ وجدتني عاطلاً غارقاً في العوز والفاقة، وفجأةً انجرَفَتْ كلُّ الأشياء العزيزة من بين يدي، المدَّخراتُ المالية... صحَّةُ الوالدة... المخطَّطاتُ المهنيةُ والعاطفيةُ، وبينَ ليلةٍ وضحاها نسيتُ أمرَ شهاداتي واشتغلتُ في كل متاحٍ ممكنٍ، من تنظيف المراحيض إلى تلميع الأحذية، ولولا أنِّي صادفتُ شريحةً واسعةً ترتعُ في العوالم السُّفلية المطفأة للحياة لادَّعيتُ أنَّ ما حدثَ لي ليسَ أكثرَ من مِلاحةٍ خياليةٍ أو مبالغاتٍ روائيةٍ للفت النَّظرِ.

الفتى الجديد الذي نطقَ الكلمات العالقة في حلقي، رافقَ أيضاً عطفات حكاياتي على الصَّفيحة البيضاءِ، وقرأَ كيفَ تحوَّلتُ مع الوقت إلى ممرِّضٍ للعجائز وكبار السِّنِّ، أشاحَ بوجهه حينَ غرزتُ الإبرةَ الأولى ارتعش، فارتجَّتْ أرضُ الصَّفحة، هدَأ قلبي ساعةَ انتفضتُ قدَّامَ أوَّل كهلٍ ماتَ بينَ يدي، فحامتْ فراشاتُ نظرته الحزينة في السَّماء المخضَّبة، تجاوزَ سبعةَ أسطرٍ ليسعدني بخدمة تاجرٍ عقيمٍ، الثَّريُّ البخيلُ الذي أحبَّني وأورثني على نحوٍ غير متوقَّعٍ منزلهُ، وفي تعاطفٍ مع بهجتي الغامرة أمضى قارئي ليلتهُ يُطاردُ ظلِّي ما بينَ الغُرف البهية، اكتشفَ معي مستودَعَ

الطَّحين، ومثلي أصغى لتبرير أمِّي: «يا ولدي كانَ العجوزُ في الظَّاهر صحافيّاً لامعاً وفي الخفاء تاجراً من فئة «الحيتان» كلَّما تهدَّدَ وجودُ سلعةٍ في السُّوق احتكرها لبيعها بسعرٍ أعلى، وكل هذا الدَّقيق من حولنا يشهد، للمشهورين يا بني أيضاً حلقةٌ يدورونَ فيها أوسعُ قليلاً من حلقاتنا لكنَّها مثلنا مغلقة، للحفاظ على نجوميَّتهم يحتاجونَ مواردَ لا تنتهي... تجارةً... وأعمالاً سريَّة.... ينمُّونها ويلمِّعونها بغطاءٍ حريريٍّ من الشُّهرة».

لم أبع الطَّحينَ كما اقترحتْ، قلتُ لها: «لستُ بحاجة إلى المال بقدر ما أنا محتاجٌ إلى صنعة تمنحني الحرِّية»، وتعلَّمتُ أُصولَ المعجَّنات وأنشأتُ في البيت الكبير فرناً صغيراً، وشرعتْ تلالُ الأرغفة تعلو من حولي، بيدَ أنَّها سرعانَ ما كانت تفسدُ وتتعفَّن، إذ أحجمَ الحيُّ عن أرغفتي، حتَّى عندما اكتوَت البلدُ بالجوع، ونفدَ الطَّحين، واختفى الخبز، بدا لي الحيُّ الخالي من الأفران يقتاتُ على أطعمةٍ أرستقراطيةٍ خَلَتْ منها قواميسُ معارفي كلها، واصلتُ العملَ مكابراً وغير مبالٍ، أمَّا الشَّابُّ الصَّغيرُ الذي قلَّبَ الصَّفحات اللاَحقة يومئذٍ بحثاً عن انفراجٍ ما، انتابهُ الملَلُ سريعاً ورمانا.

القارئ الفتى يفتحُ الكتابَ الآن، يبحثُ عن الجملة التي جلستُ فيها عندَ الباب، تقولُ أُمُّهُ من فوق كتفيهِ: «اقرأ يا ولدي.... فتنسى جوعك»، وتقولُ أُمِّي فيما تُخرجُ السَّمكتين المخلَّلتين من علبة السَّردين لتمدَّهما في الطَّبق الكبيرِ: «الله الرَّازق يا بني... اخبز ووزِّع ما لا يباعُ على

الجوعى»، يندغمُ الصُّوتان الأنثويَّان في منتصف السَّطر الثَّالثِ، الأُمَّهات حلولٌ جاهزةٌ للمعضلات مستحيلة الحلِّ، تقترحُ والدتي فكرةً عجيبةً، فيرمقها الفتى باهتمامٍ، تغمغمُ معتصرةً صوتها: «أتعرف!! اخرج للشَّارع مع صاحٍ صغيرٍ، اخبز هناك ونفِّذ حركاتك الحلوة أمام الخلق، اللَّهو بالرَّغيف كالبهلوان يجذبُ الزَّبائن أكثر من الرَّغيف نفسهِ»، مضغتُ الفكرةَ كالعلقم، ثمَّ ابتلعتها، وفي عربةٍ بثلاثة دواليبَ نقلتُ الصَّاجَ والعجين إلى الشَّارع، وخلالَ أيَّامٍ بدأتُ ألفتُ الأنظار، فأضحت السيَّاراتُ تتباطأ قربي، وأحيانًا تتوقَّف، تمدُّ كلابهم الجميلة ألسنتها ثمَّ رؤوسها من النُّوافذ، تخطفُ أرغفتي قبل أنْ تتلقَّفها يدي، وكانت الضحكاتُ تتعالى، والأوراقُ النَّقديةُ القيِّمةُ تنهمرُ عليَّ كالسِّحر، يبدو أنَّ الأغنياء لا يأكلون الخبز مثلنا، ولا يموتون باختفائهِ، إنَّهم يتسلَّونَ فقط بخفَّة كفِّي وظرافة كلابهم، مكتوبٌ في وسط الصفحة أنَّ فقراء الشَّارع من الباعة الجوَّالين وعمَّال الصيانة والبناء والمشرَّدين الهائمين حاولوا الاقتراب منِّي لكنِّي هششتهم كالذُّباب، لم يكنْ بمقدوري سوى الانصياع لخطَّة النَّصِّ، لقدْ كانَ الكاتبُ مجرمًا حينما قرَّرَ ذلك، تبدَّلَ شعورُ الفتى نحوي، فاستشرسَ بمعاملة الورق، قلَّب قليلاً بمستقبلي فألفاني قبل النِّهاية بقليلٍ أُمسي من رجال الأعمال الحقيقيِّين وأرتكبُ كلَّ الدناءات التي أدنتُها من قبل، وفوقَ ذلكَ ألتقي المرأة التي ستخطفُ قلبي، الفتى الذي لم يلقَ العدالةَ حتَّى في الكتب عادَ إلى الشَّارع حيثُ

تركني، فشاهدَ صبيّاً حافياً يمدُّ لي يده، مكتوبٌ أنِّي دفعتهُ مغتاظاً، لكنِّي أبعدتهُ بما استطعتُ من لطفٍ، مكتوبٌ أنِّي جمعتُ الخبزَ في كيسٍ وحملتهُ على ظهري لأتَّقي هجومَ المتطفِّلين، نعم جَمَعت وحَمَلت، مكتوبٌ أنَي تحسَّستُ المالَ في جيبي وابتسمت، لكنِّي تحسَّستهُ وبكيت، مكتوبٌ أنِّي رجعتُ إلى منزلي الواسع، بيدَ أنِّي بالأرض التصقتُ، مكتوبٌ أنِّي رجعت، لكنِّي أنزلتُ الكيسَ عن ظهري وناديتُ الصبي... والمرأة الشَّاحبة... والرَّجلَ على الرَّافعة، مكتوبٌ أنِّي رجعتُ، لكنِّي بقيتُ كالتِّمثال واقفاً قبالةَ الفتى المندهش، مكتوبٌ أنِّي رجعتُ، لكنِّي حملتُ رغيفين وندهتُ في الأعلى أساهُ، سرتُ نحوه، تطلَّعتُ في عينيه الحقيقيَّتين مطوَّلاً، ومن الأسى المزروع في أرض الصَّفحة هربتُ لآخر مرَّةٍ... وخرجت.

مقعدُ المتفرِّجين

اللَّمسةُ الأخيرةُ كانتْ لأحمر الشِّفاهِ، نحَّتْهُ في رفقٍ، ثـمَّ صفَّفتْ بيـدها شـعرَها المتمـاوج، وبالكـاد تناولـتْ حقيبتهـا لتغـادرَ حتَّـى خرجَـتْ مـن المـرآة صـورتُها وتبعتهـا، اتَّهمَـتْ عقلهـا دونَ تـردُّدٍ: «تشويشٌ ولا بد من مخلَّفـات السَّـهر الطَّويـل»، علـى الـدَّرج الزَّلـق كـانَ ثمَّـةَ صـوتٌ مضـاعفٌ لطقطقـة خطواتها، وفي الشَّـارع المبتـلِّ بظـلالِ العـابرينَ المسـرعين لمحَتـهُ وهـو ينتـأ مـن الأوَّل... ظلُّهـا الثَّاني، شعرتْ بأنَّها تتفكَّكُ، توقَّفَـتْ لتفـركَ عينيهـا، مارَسَـتْ شـيئًا من تمارين التَّنفُّس، ومع الزَّفير البطيء المنفوث من فمهـا المزمـوم أحسَّتْ جيِّداً بحرارة النَّفس الآخر، لم يقطع خفقانَ قلبها المفـاجئ إلا سؤالُ رجلٍ مزكومٍ: «كم السَّاعةُ لـو تكرَّمـتِ؟!»، أجـابَ صـوتها من الخلف: «الثَّامنة إلا ربعـًا»، شـكرَهُ وهـو ينظـرُ مـن خـلال عينيهـا المـذهولتين، ثـمَّ مَضَـى يخـبُّ ببقعـة المـاء المديـدة، التفتـت فـإذ بنفسها خلفها، صورتها التي خرجَت من المـرآة تحـدِّقُ فيهـا دونَ أن تقلِّدها، انعكاسها الذي ما عادَ ينتمي إليها، تقدَّمتْ في تـرنُّحٍ وكأنهـا تسـيرُ فـوقَ جسـرٍ خشـبيٍّ، لكـن لـم يكـن هنالـك وقـتٌ للفـزع والهذيانات، تمالكَتْ أعصابها، دمدمتْ وسطَ سيلٍ من الابتهالات: «ليسَ السَّهرُ وحدهُ... حرارتي مرتفعةٌ أيضـًا»، لوَّحتْ بيدها لسـيَّارة

أجرة، بدا ذلكَ حلّاً سريعًا للخروج من المشهد المجنون، تهادَت السَّيَّارةُ في تهدُّجٍ، ثمَّ توقَّفَتْ أمامها، فتحت الباب، وأغلقتهُ خلفها بانفعالٍ، من وراء الزُّجاج كانت شخصيَّتها المنطبقة تهرولُ نحوها، خاطبَت السَّائق الكهلَ بنبرةٍ منهارةٍ: «عجّل من فضلك»، لكن الصُّورة طبق الأصل كانت قد أصبحتْ كاللَّمح إلى جوارها، سألَ العجوزُ ناظراً في المرآة: «إلى أين يا آنسة؟»، قالتْ: «إلى شركة التَّأمين بعدَ الدَّوَّار»، وقالت الأُخرى: «إلى الملاهي»، أغمضتْ عينيها بشدَّةٍ علَّها تبتلعُ ما ألمَّ بها من خيالاتٍ وأصواتٍ، ثمَّ فصَّدتْ بتروٍّ واقعيةَ المشاهد المتلاحقة على بلَّور النَّافذة، ناولتهُ الأُجرةَ في صمتٍ، وأمامَ البوَّابة الحديدية الملوَّنة انتهى بها المطاف، كتمت الرَّعدة الخفية، وهتفتْ بغضبٍ جليٍّ: «قلتُ لكَ شركةَ التَّأمين... ألم تسمع»، لكنَّهُ استدارَ نحوها في لطفٍ متناهٍ ثمَّ دمدمَ: «هذه الملاهي... تفضَّلي»، نزلت نسختها وتركتها، وكردٍّ فعلٍ لا إراديٍّ لحقتْ بها، حاولتْ أن تمسكها من ذراعها، أو تشدَّها من ثوبها، غير أنَّها لم تحتك إلا بالهواء، فقد كانت غريمتها أقرب إلى صورة هولوغرامية ثلاثية الأبعاد، مجرَّدَ وهمٍ لا ملمسَ له، شرعت الأفكار المختلَّةُ تنحفرُ في رأسها:

«هذا هذرٌ، تخاريف، أنت في رأسي وحدي، لكن إنْ كنتُ جننتُ فكيفَ يراك النَّاس؟! أبدو أنني أنا انعكاسك... من أنتِ؟ وكيفَ جئتِ؟!».

لم تنتظر إجابةً، السَّرابُ ليسَ مطالبًا بتبرير نفسهِ، كلُّ الضَّجيج غير المسموع ينبعث من داخلها هي، هي اللامرئية حاليًّا، تسمَّرتْ مشدوهةً أمامَ ما يحدث، كانت نسختها تجادلُ الحارس كيما يفتح الباب، امتقعَ وجهها وهي تكتشفُ أنَّها سحبتْ منها وجودها الأصيل، تلمَّستْ جسدَها المنطفئ، ضغطتْ بشدَّةٍ على لحم ذراعيها، توجَّعتْ، توجَّعَ قلبها الذي لم يكفَّ يقنعها أنَّ ما يحدثُ ليس أكثر من منام، وأنَّها ستفيقُ -ولا بد- بعدَ قليل.

وكمن يتفرَّجُ على فيلمٍ سينمائيٍّ راحتْ تتابعُ مبهوتةً ما يحدث، لم ترمش وهي تشاهدُ كيفَ فتح الحارسُ البوَّابةَ مبتسمًا، لم تسمع ما قالته نسختها العجيبة، لكن رأتها وهي تشكرهُ بتعابيرها الطِّيبة وتطالبهُ بتشغيل الأراجيح الدَّوارة، كطفلةٍ ركبت إحداها، وكأبٍ طلبَ منها أنْ تتمسَّكَ جيِّداً، شرعتْ تدورُ في الأعلى، وأخذت الشَّمس تسيلُ على شعرها الخفَّاق ليراتٍ من ذهبٍ، بدتْ بضحكاتها المتواصلة أقرب إلى كائن سماوي بجناحين منها إلى امرأةٍ متَّزنةٍ، المزاجُ الصَّباحيُّ الكئيبُ العابقُ بالوجوه الكالحة وروائحِ الهموم والعوادم انقلبَ فجأةً، بدأ المارَّةُ يشيرونَ إليها

ويتوقَّفونَ للفرجة أيضـًا، حتَّى الأطفالُ الذينَ مدُّوا أياديهم من نوافذ الحافلات ولوَّحوا قدْ شعروا أيضـًا أنَّ هنالكَ أمراً غريبـًا ومفرحـًا وغير معتادٍ يحدثُ، انتابها خجلٌ شديدٌ، افترضتْ أنَّ أحد معارفها قد يراها مصادفةً، فكَّرَتْ بسمعتها، خطرَ لها أنْ تهرب، لكن لن تجني من ذلك إلا الضَّياع أكثر، فما يحدث سيحدث، إن كانت في منامٍ فستصحو ولا شك، لكن إن لم تكن فالحقيقةُ مرعبةٌ، قرينتها الواقعيةُ أضحت مجرَّدَ ظلٍّ خارجٍ عن سلطة عقلها، أمَّا هي فقد أمستْ كالفجاءة محضَ وهمٍ ينتظرُ توضيحـًا ما... أيَّ توضيحٍ.

«يا بيَّاع المارشميلُّلو» نادى صوتها المهتزُّ عاليـًا الرَّجلَ المتوقِّفَ للفرجة، ذاك الذي اندفعَ نحو المرأة المضحكة بهمَّة الحالمين بدورٍ ثانويٍّ مع مهرِّج السِّيرك البطل، راحَ الصُّندوقُ الخشبيُّ المتدلِّي من عنقه يتراقصُ مع خطواته الحثيثةِ، وشرعَ جبلُ المكعَّبات الملوَّنة الطَّرية بالتَّماوج والتَّخلخل، قالتْ نظيرتها المرئية شيئـًا له، فسارع يرمي لها قطعـًا من المارشميلُّلو الحلو كلَّما أتمَّتْ أُرجوحتها دورةً كاملةً حول المركز، وحرصتْ أن تمدَّ ذراعيها لالتقاط بعضها، فتصيبُ مرَّةً وتخيبُ مرَّاتٍ، الجمهورُ خلفَ البوَّابة والسُّور ذي القضبان كانَ مستمتعـًا بطريقةٍ مثيرةٍ للعجب، فعلا الصَّفيرُ والتشجيعُ والتَّصفيق والهتاف، الجوَّالاتُ أيضـًا ارتفعتْ لتقيِّدَ الحدثَ الطَّريفَ الذي قد لا يتكرَّرُ أبداً في

المدينة الكئيبة. تهالكت الصبيةُ المتماهيةُ مع الفراغ وهي تتملَّى حماقةَ صورتها وجنونها، شدَّتْ جفنيها جيِّداً على خوفها، دثَّرتهُ كي يقنعَ بأنَّ ما يشهدهُ تركيبةٌ من كيمياء الأحلام، لكن مسلسلَ الإغماضات القوية لم يكنْ ليضعَ حدّاً لتلك المهزلة، فقد كانت تسمع اسمها يتردَّدُ على أفواه المتندِّرين، أحدُهم تعرَّفَ إليها وما من شكٍّ، ساعةٌ مرَّت قضتها راكضةً خلفَ الضَّباب الذي أصبحها، من حديقةٍ إلى مسرحٍ ومن سوقٍ إلى ملعبٍ، المرأةُ التي تشبهها كانتْ تتراقصُ في مشيتها كالطِّفلات المغناجات، كانتْ تغسلُ قدميها بماء الفسقية الفوَّارة في منتصف السَّاحة، كانت تسرقُ وردةً من كل غصنٍ وقبلةً من كل طفلٍ مستدفئٍ بحضن الوالدة، كانت تتزحلقُ على عشب الطَّريق، تتذوَّقُ المطر الخفيف بلسانها الممدود فيما عينها تلتهمُ جمالَ الغيمات العاليات، كانت تضحكُ في وجه المتنمِّرينَ والمتحرِّشينَ والمستهزئينَ والمندهشين، كانت تغنِّي بصوتٍ عالٍ وكأنَّها تقرصُ خدَّ الشوارع الجامدة وكأنَّها تمنحُ شحوبَ الأمكنة تلويناتٍ جديدةً لا نعرفها وتفضحُ ببساطةٍ المعاني الخبيئةَ للأشياء.

المرأةُ الأصلُ المخفية انهارتْ فجأةً، ذابتْ خفراً، خافتْ من كل شيءٍ، والبكاءُ العميقُ الذي استعصى عليها أخذ يقرضُ أحشاءها، أيقظتها من بؤسها تربيتةُ صورتها الحانية، ابتسمتْ في وجهها مؤكِّدةً

وجودها الملتبس، بدا الأمرُ مربكـًا وشبيهـًا بالحدث الجلل الذي يسبقُ النُّقطةَ في آخر السَّطر، انتظرتْ لثوانٍ أن يقلبَ أحدهم الصَّفحةَ فيطوي القصَّةَ كلَّها أو ذاكَ المشهدَ الفانتازي على الأقل، استنفدَتْ كلَّ أحاسيسها وانتظاراتها، غيرَ أنَّ الواقع الذي يفرضُ علينا أن نوجّهَ قصصنا بأنفسنا لم يتدخَّل، انتفضَتْ دونَ مقدِّمات، سيطرت عليها رغبةٌ ملحَّةٌ بالفكاك من مخالب الخيال، تمالكتْ أعصابها المنهارة، استجمعتْ قواها، أشاحتْ نظرها عن نسختها الآدمية، تجاهلتها، تطلَّعت إلى ساعتها، استدركَتْ تأخُّرها عن العمل، العمل الذي يطعمها، العمل الذي يرفعها، العمل الذي يستعبدها حد مقاصصتها جرَّاءَ تأخُّرها ذاك، لم يكن مبنى الشَّركة بعيداً عنها، عشرُ دقائقَ من المشي السَّريع قد تحلُّ المسألة، نهضتْ، أوقفت التَّفكير بجسدها وبصورتها وبكلِّ ما حدث وانطلقت، وخطفًا انقلبتْ كلُّ الموازين، المرأةُ المنعكسةُ الحرَّةُ بدأتْ تتبعها كطيف، تتحلَّلُ في الظِّل، تتجمَّعُ في الضَّوء، تنعطفُ خلفها، تهرولُ خلفها، وخلفها تخلعُ ثقلها المُرتَدَى لتعودَ خفيفةً كالحلم، أدركت المرأةُ الأصلُ هذا عندما استعادتْ بدورها شكلها الجسماني المرئي والمحسوس، طغى صوتُ لهاثها على دقَّات قلبها المنفعلة، واستمرَّتْ باختلاس النَّظر إلى الأُخرى التي فقدتْ مع الوقت حيويَّتها وطاقتها وليونتها وبريق عينيها وصارتْ شبيهةً

بهـا تمامـاً كالانعكـاس، صـارتْ واقعيـةً بـإفراطٍ، توقَّفـَت المـرأةُ لتستريح، نفَضَت التَّفاصيل الملحومة عـن جلدها، صـوَّبتْ نظرها نحـو مبنـى الشَّـركة المطـل كبوَّابـة الفـرَج، ثـمَّ إلـى صـورتها التـي استحالتْ ظلّاً قاتمـاً مطفأً ينسحلُ تحتَ عجلات المركبات وأقدام المارَّة... ظلّاً كأيِّ ظلٍّ.

لـم تنتظـر إذنـاً مـن إشـارة المـرور، قطَعـت الطَّريـقَ السَّـريعَ في تلهـُّفٍ، التحقـَتْ بطـابورٍ صـغيرٍ مـن المتـأخِّرينَ الـواجمينَ... الخائفينَ كالمـذنبين، في مقدِّمته كـانَ هنالـكَ سيِّدةٌ تجـادلُ مراقـبَ الـدَّوام، وخلفهـا شـابٌّ يرجـوهُ في تـذلُّلٍ، سـرحتْ بأفكارهـا بعيـداً، تشوَّشـتْ، وبالكـاد تحـرَّكَ الطَّـابورُ نحـو الأمـام حتَّـى أحسَّـتْ بارتعـاشٍ في رجليهـا، نظـرتْ فـإذ بظلِّهـا ينسـحب مـن تحتِهـا، يبتعـدُ كلطخـةٍ، وفي الجانـب المقابـل مـن الشَّـارع ينضـجُ سـريعـاً ويصـيرُ امرأةً تشبهها، المرأةُ الظلُّ بدتْ طافحةً من جديـدٍ بـالفرح والطَّاقة، لـم تكـن انعكاسـها أبـداً كمـا سـبقَ واعتقـدتْ وإنَّمـا عمقهـا الحـر الملتهب، من بائعٍ لم يكـن موجـوداً مـن قبـل أخـذتْ مرأَتُهـا الـوهم كوبـاً من قهوةٍ سـريعة التَّحضير، وعلـى أحـد المقاعـد الكثيـرة التي نبتت فجأةً ما بينَ الإسفلت وشجر الطَّريق جلسـتْ لتحتسي قهوتها وتراقبهـا، علـى المقاعـد كـان هنالـكَ عشـراتُ الجالسين الـذين لـم يوجدوا من قبل والذين استطاعت التَّعرفَ إلى أشباههم في الطَّابور

أمامها، كلُّهم كانوا يتأمَّلون كالمتنسِّكين السَّيَّارات المسرعة... الأوراق المصفرَّة السَّاقطة عن أكتاف الشَّجر... النَّاسَ المنهكين... أنماطَ الحياة الآليةِ... الاكتظاظ... التعقُّد... البؤس... الطَّابور الزَّاحف كالدُّودة.

عندما اختفى الطَّابور النَّحيلُ خلفَ البوَّابة المنغلقة لم تكن المرأةُ معه، فعلى أحد المقاعد التي غصَّتْ بعشرات المتفرِّجين الوهميِّين جلسَتْ إلى جوار نفسها الجميلة، ومن هناك راحت تتفرَّجُ معها على الحياة الغريبة... وكأنَّها تراها للمرَّة الأولى.

الرَّكض على حافَّة العالم

حياتي العزيزة...

أعلمُ أنَّ اللَّيلَ انتصف، لكنِّي حسمتُ أمري وقرَّرت، سنهربُ من الوقت معًا، سنفرُّ من هوان التَّرقُّبِ، وعندما يصلُ المستقبل لن يجدنا، عندها سنكونُ لا أكثر من ماضٍ مَنسيٍّ. همَّمتُ منذ لحظاتٍ ساعةَ الحائط، لن تلدغنا عقاربها مجدَّداً، لأنَّ الزَّمنَ لن يسري علينا كسائر المساكين المنتظرين مصيرهم، فإنِّي وإيَّاك يا حبيبتي لن نكونَ موجودين على أية حالٍ.

لا تزعلي أرجوكِ، وثقي أنْ لا طائل من أي جدالٍ، إذ مهما امتدَّ العمرُ بنا فإنَّا إلى زوالٍ، أنا سأعجِّلُ الأمرَ فقط، أنا الذي لا حولَ لهُ ولا يعلمُ حقّاً إن كنت أنت عطبه أم هو ضررك، أجدني اللَّحظةَ في قمَّة غبطتي فيما أدوسُ شظايا السَّاعة الزُّجاجية برجليَّ، أتسمَّعُ على فرقعتها الهشَّة في تلذُّذٍ، وأرنو إلى الستائر بلا عاطفةٍ، تلكَ المرفرفة قدَّام نافذتي الدَّافئة بلا انقطاعٍ كتلويحةٍ أخيرةٍ.

لديَّ أسبابي العظيمة لأفعلها...

تذكرين كيف كنت تتناهبينَ عمري؟! من مناهدةٍ إلى مناكدةٍ، معارك يوميةٌ من الانفعالات والمخاوف لا تقطعها هدنةٌ واحدةٌ، والأدهى أنَّك لم تكفِّي عن معاملتي بمنطق السَّيِّد والعبد، لم يخطر لك أنَّ بإمكاني أنا

أيضـاً أنْ أُلغيك وأُعطِّلكِ، أعلمُ أنَّهُ ليسَ من شـأنك توزيـع العـدالات ولا تأبهين لكونك ظالمةً أم لا، لكن فكِّري معي لطفـاً، مـاذا يعنـي إقحـامي في فصـولٍ ميئـوسٍ منهـا؟! في أيَّـامٍ شـائكةٍ وضـيِّقةٍ ودهليزيـةٍ، وأي الحلبـات أعددت لـي أنـا البريءُ الأعـزلُ الـذي سـقطَ فيـك مصـادفةً مـن حيـثُ لـم يحتسـب، لـن أُشـمِّرَ عـن زنـديَّ ولـن أفـتحَ أزرار قميصـي لأُريـك آثـارَ السَّـقطات المريـرة، آثارهـا أعمـقُ مـن المرئـيِّ بكثيـرٍ، الجـراح الرَّطبـة المفتوحة النَّازفة قـد تلتئمُ ببضـع غـرزاتٍ، لكـن مـن يقتلـعُ جـذورها مـن الدَّاخل؟! من يخلِّصنا من وشائجها السحيقة المتغلغلة فينا؟!

هيَّأت لـي جسـمـاً.. صـح؟! وأهـلاً ودينـاً وبـلاداً وبيئـةً مـن اختيـارك وقلتِ: «عشني»، أنت الزنزانةُ الفرديةُ، وأنا المسجونُ الذي أقنعوهُ أنَّهُ حرٌّ طليقٌ وما من مفرٍّ، أذكرُ كيفَ كانَ يحدوني حلمُ البحث عن وفرتكِ، أنـت الشَّـحيحةُ الجـدباء التـي لـم تكـف تتزيَّـا بثـوب الخصـبِ، بحثـتُ عـن صداقاتٍ بحجـم وحـدتي فلـم أجـد، عـن أقـارب مـن صـلب روحـي، عـن لذَّاتٍ لرغباتٍ لا تنتهي بمجرَّد تلبيتها، عن امرأةٍ تعقدُ لي ربطةَ عنقي دونَ أنْ تنتزعَ عينيها من عيني... عن وطـنٍ لا يفكِّـرُ بـالهجرة مـن تحـت قـدميَّ كلَّما أذنبت... فلم أجد.

لا تواصـلي التَّحـديقَ في هكـذا، تحسـبين أنِّـي مخنـوق؟! فقـط؟! أنـا المشنوق المتدلِّي من قبضتك كالجيفة، حان الوقت لأقول لك إنَّ الوجـهَ الذي يتراءى في المرايا ليس لي، الاسمُ الـذي اختـارهُ الآخـرون ليس أنـا،

وأنت في الأصل أيتها المقدَّرة... لست حياتي، طعَّمتكُ بالتَّحسينات والتَّخيُّلات لكن طعمك لم يتغيَّر، ظلَّ مرّاً... مرّاً بإفراطٍ.

ستقولين إنَّا شريكين! لا يا عزيزتي، أنا حارسكُ فقط، مجرَّدُ شاهدٍ على انسيابكِ، أحسبُ أنِّي أختار حينـًا، أضعُ لمسةً هنا وتغييراً طفيفـًا هناك، لكنِّي في المحصِّلة لستُ سوى النَّاطور في المجرى البئيس الذي تجرِّرينني به خلفك، تعالي، تعالي لأقرأ لك ماذا كتبَ... من كان؟! إيميل سيوران أجل، عدوُّك الذي خرجَ لك من الكتب، في هذا تحديداً، أوراقهُ منزوعةُ الغلاف، أُميِّزُ حفيفها ورائحتها جيِّداً، هنا في هذه الصَّفحة، لا هنا بالضَّبط، انظري، اسمعي:

«الإنسان حرٌّ إلا حين يتعلَّقُ الأمرُ بما هو عميقٌ فيهِ، على السَّطح هو يصنع ما يريد، أمَّا في طبقاته المعتمة فإنَّ الإرادة لفظٌ خالٍ من المعنى».

لا توافقين؟! تتهكَّمينَ وتضحكين؟! تقولين مطلقُ التَّعاسة والحماقة؟! سعيدةٌ بكوني اللابث فيك كالعاجز، كالأُضحية، سعيدةٌ بالكائنات العاقلة التي تزحفُ في مجراك على بطونها كالدِّيدان فتمنحكُ قيمةً ووجوداً؟! أُقسمُ لك لا أُريدُ أنْ أغضب، أُريدُ أنْ نمضي إلى النِّهاية كعاشقين وحسب.

«تك تك... تك تك».

أتسمعين مثلي؟! أشعرُ أنَّ العقارب ما زالتْ تعمل، سأحطِّمُ حطامها كلَّه، هكذا... أرأيتِ!.. هكذا، ها قد صارتْ كِسَراً دقيقةً، وباتَ بإمكاننا الإفلات من الثَّواني السَّريعة...

«تك تك... تك تك».

يا رب السَّموات الصَّوتُ لا يخمد، إنَّهُ يخرجُ من الحيطان، من شقِّ الباب، إنَّه يخرجُ... منِّي.

انسَي الأمر، لن تكتمل الدراما البشرية بنا على أية حالٍ كما أنَّها لن تنقص، سأودعها جسدي وأمضي، فأنا مكتملٌ بذاتي، ذاتي النُّورانية الخفيفة التي ستنتصرُ على المادَّة بعد قليل، وتتحرَّر، هيَّا تشجَّعي، غنِّي، لا تنظري إليَّ هكذا، أنا خارجٌ اتبعيني...

اتركي الباب... لن نغلقهُ خلفنا، لا شيء لنا هنا، فالمفاتيحُ خدعةٌ تنطلي علينا فنحسبُ أنَّا «نملك»، هاتي يدكِ، دعينا نرقصُ في طريقنا إلى الجسر المعلَّق، اليدان في الأعلى، رجلٌ أمامَ الأُخرى، دوران، خطوتان سريعتان إلى الأمام، دورانٌ ثانٍ بعكس النَّسمة النَّدية المعطَّرة، هكذا... هه، يا الله ما أزكى هذه الرَّائحة! لم أنتبه من قبل أنَّ في الجوار ورداً، غاردينيا؟! هنالكَ ريحانٌ أيضاً، شُمِّي، أعمق، هكذا بأكمل الرِّئتين، انظري كيفَ تتلألأ البيوتُ على سفح الجبل كعقدٍ من النُّجوم، لكأنِّي أراها للمرَّة الأولى، ألست سعيدةً مثلي... ما بك؟! دعينا نحوِّلُ ليلَ الآخرينَ إلى كرنفالٍ من ضوءٍ أبديٍّ.

«تك تك... تك تك».

لا تكترثي للصّوت، تكَّاتُ السَّاعة ستفارقنا إلى الأبد، أتشعرين أي وقعٍ لذيذٍ لكلمة «الأبد»، نحنُ الآن ذاهبان إليهِ، نعم الأبد مكان وليس مصطلحًا، المكانُ المدهشُ الذي لم يرجع أحدٌ منه، فكِّري في الأمر كمغامرةٍ، سأتركُ على الأرض المؤقَّتة مشاكلي وهمومي... صراعاتي وبؤسي... كلَّ النِّهايات التَّعيسة... كل الأشرار... كل الظُّلم والألم والجوع والخيبة والذُّل والمرض والقهر... سأتركُ كل شيءٍ وأمضي.

لنركض على الجسر وكأنَّهُ حافَةُ العالم، ما أعظم هذا الشُّعور! أتلاحظينَ أنَّهُ لا يميدُ تحتنا؟ يعتقدُ أنَّهُ ثابتٌ، لا يستطيعُ مثلنا الانعتاقَ دفعةً واحدةً من الكذب والأوهام المسلِّية، سيراقبنا فقط ويتحسَّر، سيتحسَّر أقسمُ لكِ، تعبت من الجري السَّريع؟! حانَ وقتُ الرَّاحة القصوى، تمسَّكي جيِّداً، حدِّقي بصفحة الماء الرَّائقةِ، مستعدَّةٌ؟! سنهبط، وهناكَ في القاع العميق سنرتِّب وداعًا سريعًا، وسيكون لدينا ما يكفي من الوقت لننطفئ كشعلةٍ مبتلَّةٍ، جاهزة؟! انظري ما أسهلَ الأمر! واحد... اثنان... ثلاثة، هيَّا، مقاومةُ الهواء شرسةٌ لكنَّنا نهوي كحصاةٍ خفيفةٍ، بسرعةٍ، بقوَّةٍ، بسلاسةٍ، إيَّاك أنْ تستحضري الأوقات الحلوة، التَّذكُّرُ يجعلُ الأمرَ صعبًا، فكِّري بالنَّهر فقط، حينَ نرتطمُ بسطح الماء سينتهي كل شيءٍ، لا تجزعي إن ابتلعتُ ماءً، اخرجي منِّي كالفقاقيع واتركيني أتخبَّط وأتهادى نحو القاع كسفينةٍ منهوبة المجد، المشاهدُ تتهاوى من

حولنا، نجومُ السَّماء تتساقطُ معنا، البيوتاتُ المضيئةُ تنفرطُ، خيالاتٌ كثيرةٌ تتسارعُ قبالتنا، تتباطأ رويداً رويداً، وتتوقَّفُ فجأةً... كنقطةٍ في آخر السَّطر.

أتعلمين! أشعرُ الآن بشيءٍ غريبٍ، مضحكٍ، مرعبٍ، بشيءٍ أخيرٍ، أشعرُ أنَّه كانَ بمقدوري إيقاف الأسباب العظيمة كلِّها، كلِّها باستثناء شيءٍ واحدٍ فقط، شيءٍ تافهٍ جدّاً... هذا الذي يحدث الآن.

«تك تك... تك تك».

نصف قلب منخور

«جميعنا نعلم أنَّنا سنموت، جميعنا نحسُّ بأنَّنا لن نموت»

فرناندو بيسوا

إنَّها النِّهاية...

حتَّى الصَّباح كنَّا لا نزالُ إخوةً حقيقيِّين، بدَونا أشبهَ بحبَّة بازلاءَ عالقةٍ في بحرٍ تتلاطمُ فيه الأمواجُ، تلجمنا إحداها... تطوينا الأُخرى، نتدافعُ، نترَنَّحُ، ننزلقُ، تُقَرِّبُ المعاناةُ البشرَ أكثرَ بكثيرٍ ممَّا تفعلُ الهناءاتُ الطَّويلةُ، أمضينا الأيَّامَ السَّابقةَ نقتسمُ ما تبقَّى من مأكلٍ ومشربٍ بإنصافٍ ما بيننا، نتحادَثُ كيما نوطِّد الحقيقة، كانَ كلُّ المهاجرينَ آنذاك وعلى اختلاف ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم بشراً ودودينَ... عطوفينَ... ظُرَفاءَ... كيِّسينَ، لكنَّ الأمرَ لَمْ يطُلْ حتَّى تبدَّلَ كلُّ شيءٍ.

تراءى الجميعُ لي لصوصاً بطريقةٍ ما، أحدُهم سرقَ مصاغَ أمِّهِ، وآخرُ نهبَ عواطفَ أطفالهِ، أحدهم اختطفَ قلبَ حبيبتهِ، وكُثُرٌ اختلسوا ما استطاعوا منَ دموع الأحبَّاءِ، كانوا يدافعونَ عن النَّوارس وهي تختطفُ الأسماكَ من مناقير الطُّيور الأُخرى، حتَّى وهيَ تسلبُ طعامنا من بين الأكفِّ السَّاهياتِ، كانَ هنالكَ من يقهقه ويُطْلِق النِّكات، غمغمَ الرَّجلُ الأسودُ وهو يلعقُ نقطَةَ الماء العالقة بفوهة القنِّينةِ:

«لا تَلُم النَّوارس... فالكائناتُ ليسَتْ مسؤولةً عن تحقيق العدالات الفردية».

قالَ الكهلُ الطَّالعُ من نوبة الرَّبو:

- ربَّما كانَ الأمرُ عدالةً حقيقيَّةً من منظورٍ آخر... الأضعفُ يحصلُ على حصَّتِهُ من حظوظ الأقوى... إذ لا حيلةَ لكليْهما في الضَّعف أو القُوَّةِ.
- لعلمكَ... البطريقُ يسرقُ أعشاشَ الآخرين، الضَّبعُ يسرقُ فرائسَ الحيوانات الضَّاريةِ، بعضُ الحيتان تسرقُ الأسماك من الصَّيَّادين، بعضُ العناكب تغزو شباكَ عناكبَ أخرى وتحتلُّها، الطَّبيعةُ ليستْ عادلةً كما تظنُّ، ونحنُ جزءٌ منها، نحنُ أساتذةُ اللُّصوصية على هذا الكوكب.
- أساتذةُ كل شيءٍ، نحنُ القادةُ حتَّى الآن، نحنُ الأعقل حتَّى الآن.

بدأتُ أتفاداهُم، أتَجَنَّبُ النَّظرَ في أعينهم الحانقاتِ، كلَّما خاطَبَني أحدٌ أشحتُ بوجهي بعيداً عنهُ، وهربتُ بعينيَّ إلى لألأة القمر على صفحة المياه البعيدةِ، هنالكَ حيثُ تخرجُ هيَ كاملةً مثلَ عروس البحرِ...

لم أَقلْ لها «أُحبُّكِ»، الكلمةُ الهائلةُ الواسعةُ الخالقةُ التي انتظرَتْها بصبرٍ جميلٍ طويلاً، بدورها كانتْ تُجيدُ مُواراتي عن قلبِها، تضعني في سقيفةِ أفكارها المهملة، وترمي فوقي أكوامَ التَّواريخ النَّافقة والأحداث المكرورة الشديدة التَّفاهةِ، تنسى في كل حينٍ أنِّي كالفطر أنمو سريعاً

وأتوشَّجُ عميقـًا في دماغها، أخبرتُها آخر مرَّةٍ أنِّي راحلٌ إلى غير رجعةٍ من أرضٍ أكَلَتْ بيوتَها ومن بيوتٍ صارتْ مفاتيحُها غريبةً إلى الأبدِ، سكتت، ونشَّفَتْ غيمتَيْ عينيها، حدَّثتها عن سواد بلادنا وعن بياض البلاد البعيدة فاحمرَّ قلبُها أكثر، وحكَتْ لي عن الأُسطورة الإغريقيَّة القديمة تلكَ التي تفترضُ أنَّ البشَرَ قديمـًا كانوا كُلّاً كاملاً لا جنسَ لهُ إلى أنْ عاقَبَتْهُم الآلهة وحوَّلتْ كُلّاً منهم إلى ذكرٍ وأنثى، ومن يومها يبحثُ كلُّ إنسانٍ عن النِّصف الذي ينتمي إليهِ، نظَرَتْ إليَّ فشعَّ قلبي، ارتعشتُ، وقمتُ أُلملمُ روحي. كلُّ من بكيتُ أمامهم يومها من الأقارب والأصحاب ربَّتوا على كتفي وأكَّدوا لي أنَّي الأقوى، وأنَّي قادرٌ ولا محالة على اجتياز حبِّها كما يتخطَّى الرجُّلُ بثباتٍ أهونَ العقبات.

كانت السَّاعةُ شمسـًا حاميةً ورطوبةً لا تُحتمل، رفاقُ المركب يتصارعونَ على الطَّعام، يختلفون على سَدِّ الرَّمقِ، وعلى الرَّغم من ذلكَ بقيتُ أجدُ من يمدُّني بكسرة خبزٍ أو نقطة ماءٍ، فأنا أَضعفُهمْ، والوحيدُ الضَّاغطُ بجسده الضَّئيل الذَّميم على ما تبَقَّى من إنسانيَّتهم، جميعهم يعرفونَ أنِّي لا أُجيدُ السِّباحةَ ولا أحملُ حقيبةً مثلهم وإنَّما صرَّة مملوءة بالمفاتيحِ، أدركوا ذلكَ في الأيَّام الأُولى لتيهنا، لقدْ فتَّشوا كلَّ شيءٍ، ووضعوا خطَّةً تُبقي الجميعَ أحياءً أطولَ وقتٍ ممكنٍ، لكنَّ الأجسادَ لمْ تكنْ واحدةً، قضى المرضى أوَّلاً، ثمَّ انتحَرَ الذينَ انهاروا وفقدوا المقدرةَ على الصَّبر أو الاحتمال...

باتوا يعرفونَ أنَّ المفاتيحَ لأبواب البيوت المهَدَّمَة في قريتنا، جمعتها بعنايةٍ، فضَّلتُ حملها على المأكل والمشرب، لقدْ رويتُ الحادثةَ لهمْ مراراً، لم أملكْ تراجيديا مثيرةً للتَّعاطف أكثرَ منها، أمَّا الذي لا يعلمونهُ فهو أنِّي بدأتُ برميها في الماء مفتاحًا تلوَ الآخر... منزلاً تلوَ المنزل.

جوعٌ، عطشٌ، روائح مُنَفِّرَةٌ، خيبةٌ، كآبة، صداعٌ، دُوارٌ، غثيانٌ، صمتٌ رهيبٌ مثيرٌ للفزعِ، محاطونَ بالماءِ، محاصرونَ بالهلاكِ، ذَرُعَ الموتُ، وامَّحى أيُّ أملٍ بالنَّجاةِ، كلُّ شيءٍ فينا شرعَ يحتضر، طوفانُ الموت القادم أغرقَ ما فينا من حُنُوٍّ ورأفَةٍ ومودَّةٍ رحنا نتخَبَّطُ كالجثث الحيَّةِ، دارَتْ رحى المعارك الصَّغيرة في كل شبرٍ من اليخت الهائجِ، تارةً على نقطة ماءٍ وأُخرى على كسرة خبزٍ...

الجانبُ الأخلاقيُّ في أمخاخنا قد تجمَّدَ بالكامل، خَدَّرَنا الجوعُ، أطلَقَ الأصلَ الحيوانيَّ فينا، ذلكَ الذي يغفلُ «العدالات الصَّغيرة»، سَفَعَتْنا الشَّمسُ فغَيَّرَتْ لونَ بشراتنا، كَسَت الرُّطوبةُ جلودَنا بلزوجةٍ غير محتملةٍ، أمسَتْ أسنانُنا صفراء، روائحنا لا تطاق، كنَّا نتعرَّقُ وكأنَّنا ننزف، بتنا أكثرَ نزقًا وعصبيَّةً... وتوحُّشًا.

في لحظات اليأس التي تخلَّلتْ عواصفَنا كنَّا نهدأُ كالحجارة، نتشَتَّتُ، نتبَعثرُ، وينساقُ كلٌّ خلفَ شرودٍ طويلٍ، فالحياةُ التي أجَّجَتْ تأفّفنا منها، والتي طالمَا كانتْ تُشْقينا وتكوينا... راحتْ تلمعُ مثلَ حلمٍ ناعمٍ يتدلَّى من العدَم، لُذْنا بها من الغُمَّة التي ألمَّتْ بنا، إنَّهُ جمالُ الأشياء البعيدة،

مستحيلةُ التَّكرار أو الإعادةِ، جلسَ واحدنا مع ذكرياتهِ، يصارعُ بها ولأجلها، وهو الذي كابدَ يوماً في سبيل الفرار منها...

فَعَّمَ صديقي الأخير القارورةَ الفارغةَ بماءٍ مالحٍ، شربَ للمرَّة الثَّالثة ورمقني بنظرةٍ غريبةٍ، تراجعتُ إلى الخلفِ، تمسَّكتُ بحافَّة القارب، تشاغلتُ عنهُ، شعرتُ بدنُوِّهِ، ثنيتُ ذراعيَّ من عند المرفقينِ، وهصرتُ الصرَّةَ بين أصابعي المتشابكات وصدري، طالَتْ نظرتُهُ، اصطَكَّتْ ركبتايَ برداً وجزعاً، بعدَ أنْ كانَ رجلاً طيِّباً وقويّاً صارَتْ لهُ عينا ذئبٍ على جسد ثورٍ مذبوحٍ، مسَّتني قشعريرةٌ مرعبةٌ، تخيَّلتُ أنَّهُ سيأكُلني حيّاً، نيِّئاً، توارَدَتْ صورٌ فظيعةٌ على مخيِّلتي، تمنَّيتُ لو يذبحُني أوَّلاً... لو يخنقني، مؤَكَّدٌ لن أقدرَ على مجابهتهِ، انتظَرتُ هجومهُ بفزعٍ، أغمَضْتُ عينيَّ، ابتهلتُ، اندفعَ نحوي، شهقتُ، أحسَسْتُ بجسده يدنو زاحفاً، بأنفاسه الثَّقيلة تلفحُني وبأصابعه تقتربُ من عنقي، ترتفعُ، تمسُّ ذقني... فمي، تفتَحُ شَفَتَيَّ عنوةً، وتَدُسُّ بينهما شيئاً رهيباً، أمْسَكْتُ ذراعَهُ، قاومتُها، فَتَحتُ عينيَّ على وسعهما، لفَظْتُ الشَّيءَ بلساني، بصقتهُ، شتمتهُ، صرختُ، غير أنَّهُ لم يقابل كلَّ ذلكَ بأكثر من نظرةٍ جامدةٍ، تطلَّعتُ إلى الشَّيء الرَّهيب إلى أنْ دمَعَتْ عيناي، همهمَ بكلماتٍ تغصُّ بالبكاء:

– نعم حبَّةُ كراميل... لا تستغربْ، آخرُ ما أملك، آخرُ ما يمكنُ أنْ يَدخُلَ جَوفَكَ، لا حاجَةَ لي بها الآن، لا طاقةَ على مجابهة العذاب بعدَ اليوم، ليسَ عذابَ الذَّوبان في البحر الوسيع كما تعتقد وإنَّما

عذابُ النَّدم، كانَ لي بيتٌ وأحبَّاءُ وأفراحٌ صغيرةٌ، تركتُ كلَّ هذا خلفَ ظهري، خذلتُ كلَّ هذا.. تصوَّر! لم أنمْ يوماً دونَ عشاءٍ رغم الفقر، إنْ فرغت الثَّلاجةُ تناولنا الحكاياتِ والضَّحكاتِ والعناقاتِ الطَّويلةَ، وها أنا الآنْ على وشك الموت جوعاً، أيَّةُ نهايةٍ مشرِّفةٍ هذهِ؟! أنتَ الآنَ الحيُّ الأخيرُ ها هنا... إنْ وصَلتَ يا أخي سلِّم على أهلي.

أخرجَ مفتاحاً من جيبه ودَسَّهُ في يدي، حينما انقلبَ إلى الخلفِ، راميًا نفسهُ في الماء المهتاج كانت الكلماتُ لا تزالُ تخرجُ من فمه كالفقاقيعِ، مددتُ ذراعي نحوهُ، حاولتُ منعهُ، كذبتُ عليهِ، وعدتُهُ بالوصول إلى أرضٍ صلبةٍ، قلتُ لهُ إنَّ النجاةَ قريبةٌ، لكنَّهُ لم يسمعني، كانَ قد اختفى تماماً. لم يطل الوقتُ حتَّى ظهرتْ جثَّتهُ من جديدٍ، راحتْ تطفو حول اليختِ، حينَ شَرعَت الخيالاتُ تنزُّ منها رعباً إثرَ رعبٍ، جدَّفتُ بذراعي بعيداً، شيَّعتها ببصري وهي تتماوجُ وتنعرجُ وتتهادى بعيداً، أَفَقْتُ بطيئاً من وقع الصَّدْمة، تعافيتُ بطيئاً من وجع البقاء وحيداً، في الحقيقة كانَ «البقاءُ» هو الأهم، فتَحْتُ البقجةَ بتروٍّ، وألقَيتُ نظرةً فاحصةً على كنزي الصَّغير، خبزٌ وماءٌ وخضراواتٌ مقَدَّدةٌ، بلى لقدْ كنتُ أسرقُ الجميع، لمْ يلحَظْ أحدٌ، لم ينتبه أحدٌ، رحتُ أُكلِّمُ نفسي، خطَرَ لي أنْ أرمي بنفسي كقصاصٍ عادلٍ ولكنَّ جاذبيةَ الحياة كانتْ أقوى، مغناطيسُ الأمل لمْ يُحرِّرني حتَّى والموتُ مؤكَّدٌ...

تقضي حياتَكَ بأكملها مضحِّيًا في سبيل الخير فيك، وما إنْ توشِكُ النِّهايةُ على الاقتراب حتَّى يتمَدَّد الجانبُ المظلمُ داخلكَ ويخرجُ شرُّكَ راعفًا، انكمشْتُ على نفسي في زاوية المركب، تطلَّعتُ إلى أشعَّة الشَّمس وهيَ تتألَّقُ على سطح المياه الممتَدَّة بلا انتهاءٍ، بدا موحشًا ذلكَ الجمال، قاتلاً، الصوتُ الوحيدُ المسموعُ هو دقَّاتُ قلبي، الحيُّ الوحيدُ هو جسدي البئيسُ، حتَّى الطُّيورُ اختفَتْ، تزاحَمَت الصُّورُ والهواجسُ في رأسي، أحسَستُ بالأفكار الغريبة شديدةَ الإيلام وهي تنبتُ في تباعًا، تنمو بسرعةٍ، تتشابكُ بقوَّةٍ، تثقبني، وتتلوَّى خارجي في كل اتِّجاهٍ، كنتُ أطفو على مقبرةٍ جماعيَّةٍ، وتطفو فوقي أبخرةُ خيالات وذكريات من سبقوني وماتوا...

هتَفَ الصَّوتُ الواعي فيَّ:

«لماذا لم تصبَّ قطرةً في فمه وهو ينازع؟ خفتَ أنْ يكشفَ حقيقَتك؟ وتحزنَ عليه حقًّا؟ إنَّها لعنتُهُ تحلُّ عليك».

تحوَّلَت السَّماءُ المُلغزة إلى شاشةٍ زرقاء عملاقة تعيدُ بالعرض البطيء ميتات ركَّاب اليخت المشؤوم، وحدي بقيتُ لأتفرَّج... لأتحضَّر... لأموتَ كثيراً قبلَ أنْ أعرفَ كيفَ سأموت، النجومُ تنطفئُ واحدةً إثرَ الأُخرى، الهواءُ الباردُ يعوقُ انطباقَ أجفاني، والحياةُ تزدادُ قتامةً، فكَّرتُ بالطِّفلة التي حلمتُ بإنجابها، ثمَّ مسحتُ دموعها من تحت جفنيَّ المنتفخَينِ...

في الصَّباح حدَثَت المعجزة، لاحت اليابسةُ في الأفق البعيدِ، وقفتُ رامقًا البقعةَ المتذبذبةَ بينَ السَّراب وبينَ الحقيقة، اتَّسَعَ بؤبؤايَ، وَثَبْتُ بتوتُّرٍ، تمايلَ المركبُ، توازنتُ، تهاويتُ بعنقٍ ممطوطٍ، ضحكتُ حتَّى الثَّمالة، من فرط التَّعب لمْ أَقدر على التَّمييز، وفي اللحظة التي ما عادَ فيها الغرقُ مخيفًا، رميتُ البقجةَ في الماءِ، راقبتُها وهي تغرقُ، ثمَّ غطستُ خلفها. حينما استفقتُ سألني المنقذُ أينَ اختفى نصفُ وجهي، تلمَّستُني، وانتفَضتُ، ترَنَّحتُ بثمالةٍ على الشَّاطئ، ملايينُ الخلايا كانتْ تُقتَلَعُ من جسدي كما لو أنَّ أحدَهم يقوم بسحبها، من الكتف، من الصدر، من العنق، من الظَّهر، بعد بضع خطواتٍ كنتُ أمشي على قدمٍ واحدةٍ، أُحدِّقُ في النَّاس بعينٍ واحدةٍ، رحتُ أطوفُ كجنِّيٍّ بنصف جسدٍ، لكنَّي لم آبه لتآكلي، اكتفيتُ بأنِّي وصلتُ الحلم، أثبتُّ أنِّي الأقوى كما أخبروني، تلفَّتُّ حولي مزهوّاً، ثمَّ مذهولاً، ثمَّ معقودَ اللِّسانِ، فقد كانَ الشَّاطئ الحلمُ يعجُّ بأنصاف أكتافٍ وأنصاف أفواهٍ وأنصاف أوجهٍ وأنصاف قلوبٍ وأنصاف أحلامٍ وأنصافٍ أوهامٍ... وأنصاف بشرٍ.

عـن الأزرق

«لن أنتحرَ اليوم»... تغمغمُ في قلبها ككل يوم.

تستغرقُ «زاد الخير» في تجميع أنفاسها، تُكَلِّمُ عن عمدٍ نفسها، ثمَّ تضمُّ راحتيها معاً وتستغفرُ مجدَّداً، يئنُّ زوجها أنيناً غليظاً فتفهمُ أنَّهُ عطشان، تهرعُ إليه بالماءِ، وبكشكشة كمِّها المورَّد تمسحُ عن خدَّيها ترهُّلات التَّعب، «فارس» لمْ يكنْ عاجزاً عن الكلام أبداً، لكنَّ العلاقةَ بينهما اتَّخذتْ مع الوقت منحى جديداً، صارت الهمهماتُ لغةَ التَّواصل السَّائدة، وحلَّتْ إشاراتُ اليدين وإيماءات الوجه محلَّ العديد من الكلمات المنطوقة، تُعينهُ ليرفعَ رأسَهُ، تغدو أصابعها مساند خلفَ عنقه وذراعها متَّكأً لذراعهِ، يعبُّ من شربة الماء فيما تفصِّدُ عيناهُ خبايا بسمتها الهشَّة واستقوائها الرَّكيك، تنهالُ خصلةٌ من شعرها على تسبيلة الجفنين، تواري كلَّ الغمِّ، وتواريه جملتها الطيِّبة: «صحتين يا روحي»، تنهضُ بتثاقلٍ، فتفوحُ رائحةُ الكمُّون من شوربة العدس المغلية، وتلوحُ علائمُ الجوعِ في أحداق التَّوْأَمين، لا يُمهلها أحدهما لتسكُبَ شيئاً في أشداق الصُّحونِ، يُناديها لتحكَّ ظهره، فتنبُتُ كالجنِّية فوقَ رأسهِ، تُمَشِّطُ بأصابعها شَعْرَهُ، تربِّتُ على عظمة كتفهِ، تبذرها بالقُبَلِ، تُدَلِّكُ بَدَنَهُ براحتَين ساختيْنِ، كأنَّما لتجلو الصَّدَأ عنْ خلاياه، وتنضو عنهُ عجزَهُ المر، تُصَبِّرُ غيْرَةَ الآخر بنظرةٍ عجلى، لكنَّها سرعانَ ما تدوخ، يحصدها

التَّعب، تَنْهَدُّ، تترنَّحُ كطريدةٍ منهوشةٍ، تُقاومُ، تتهاوى، وعلى بُعْد رمشةٍ من السَّقطة تنتفض، تجرُّ الكرسيَّ المدولبَ نحوها، وتلبدُ فيهِ، يفطنُ أحدُ الولديْن أنْ يسْأل:

- تعثرتِ!!

- لا يا قلبي... أرتاحُ فقط.

- طيِّبْ متى يحين دوري على الكرسي، كنتُ أتناوبُ عليه مع أخي ثمَّ جاءَنا أبي... والآنْ أنتِ! امسح الفقراء يا الله عن وجه البسيطة، أوَّلهم نحنُ يا الله... أوَّلهم نحنُ.

يقذفهُ شقيقهُ بالمنشفة الرَّطبةِ المدلَّاةِ على كتفه، يشتمهُ، يشحُّ ضوءُ عينيها، تسمعهُ إذْ يؤنِّبهُ هامسًا: «حرام عليك يا أخي... ستقتلُ أمَّكَ، حكِّي لي ظهري وقومي عن الكرسي!! إنَّها مقتولةٌ بنا أصلاً».

تتلَّمَّسُ خفيةً ثوبها الجديد، تتملَّى ثنيات الشِّيفون ولمعات القصب وتغوصُ في الدَّرجة الفاتنة ما بين البنفسجي الفاتح والوردي الغامق «لماذا ابتعتهِ؟!» تسألُ نفسُها المحتجَّةُ دومًا، «بثمنه كنت ستجلبينَ شوال طحين»، «اشتقت إلى الألوان؟!» تسألها نفسها ثانيةً فلا تجيب، تغيبُ زاد الخير عن الوعي، تستخدمُ هذه الحيلةَ كلَّما انهارت، تتوارى في زمنٍ موازٍ آخر، فلا تسمعُ ولا ترى ولا تشمُّ إلا الجلبةَ المخنوقةَ في أعماقها...

تمسكُ المشهدَ من أوَّلهِ، تلكَ اللَّحظة التي اكتشَفَتْ فيها أنَّ والدها يصرُّ على تزويجها ولم تبلغ العشرينَ بعد ليتخلَّصَ من المحنة الكبيرة

«لقمة عيشها»، يومها كزَّت أمُّها على أسنانها، تذكَّرَتْ قريبها «معروف»، فهبَّتْ إليها، هَصَرَتْ منديلاً بينَ أصابعها المكرمشة، ثمَّ نفَثَتْ بحرقةٍ رجاءاتها: «يا ابنتي تزوَّجيه إنْ كانتْ مرضاتي تعنيكِ، لمحك قبلَ سفرهِ، استدلَّ عليكِ، ومن يومها يرسلُ إلينا بلا كللٍ بأنَّهُ سيعودُ من أجلكِ»، لكنَّ رأسَ الابنة اليابس لمْ يكنْ ليرضخَ أو يساوم على مسلَّمات قلبها، ذلكَ المتيَّمْ بجارهم الوسيم «فارس»، يبدأ المشهدُ الثَّاني يومَ تقدَّمَ فارس لخطبتها بغتةً، ولشدَّة الفرح الذي زلزلَ منزلهم لا تتذكَّر إلا أنَّهم جميعًا كانوا يحلِّقونَ ويزقزقون، طارَ صوابُ الأهل المبهورينَ بالعريس المُخَلِّصِ، وطارَ صوابُ البنت التي وجدتْ فارسها على بابهم وكأنَّهُ الحلم، قبلَ حتَّى أنْ يُلمحَ لها من بعيدٍ ولو بكلمةٍ.

في المشهد الثَّالث تتصدَّعُ الأحلامُ كلُّها، بعدَ الزِّيجة الخاطفة ينقلبُ العريسُ على ظهره مقهقهًا بعد أنْ يفتحَ حقيبةَ «جهازها» الضَّخمة، تذوبُ خجلاً وكأنَّها تنتبهُ للمرَّة الأولى أنَّ ثيابها كلَّها زرقاء أو مخطَّطة أو موشَّاة بالأزرق، عندما يتمالكُ نفسهُ يلتقطُ نَفَسًا بينَ ضحكتين، ويهمسُ في أُذنها جملتهُ الأُولى: «لكأنَّني تزوَّجتُ صبيًّا!»، لا تقولُ العروس إنَّها مسحورةٌ بالبحر والسَّماء وعيني أُمِّها، تسكتُ، وتهبُّ بعدَ أيَّامٍ لتحرقَ ثيابها، في السِّرِّ فعلتها، وفي السِّرِّ راقبت النَّار وهي تأكلُ البحرَ والسَّماء ونظرةَ أُمِّها، ومع الوقت تستنتجُ أنَّ شريكها لا يشبهُ خيالاتها إطلاقًا، لا ينظرُ في عينيها، لا يجالسها، لا يحادثها، ولا ينبسُ بغزلٍ حلوٍ، يبدو لها

فجأةً كائنًا من نزقٍ ومن بلادةٍ وغضبٍ، تتكسَّرُ مشاعرها على غبش عينيه الباردتين، تتحسَّرُ على أحلامها وصباها، يتآكلُ آخرُ الدِّفء في صدرها، ويبلغُ الضِّيقُ بها أنْ تشتهي الموتَ اشتهاءَ الصبايا للفساتين والحليِّ والقصائد، تفكِّرُ بالانتحار كي لا تعودَ إلى أهلها بخيبةٍ، لكنَّها كالمحاربات تقاوم، وبعدَ حملٍ سريعٍ تغرقُ في وحل اللاعودة، تكتمُ في حلقها ما لنْ يفهمهُ أحد، وينتفخُ الأملُ في بطنها ليمنحها سببًا جديداً للحياة.

في المشهد التَّالي تفيقُ على الفاجعة، وليدان مشلولان سوفَ يشلان بلا ريبٍ عصبَ الرُّوحِ، يخطرُ لها أن تقصَّ شرايينَ الحياةِ، لكنَّها تتشمَّمُ لوهلةٍ وردات جلدهما فتمتلئُ بالأُكسجين عروقُ خيالاتها النَّاشفة، تخجلُ من هلاوسها، وتستغفرُ ضميرها من ضعفٍ ألمَّ بها.

«لن أنتحرَ اليوم» تقول في المشهد السُّوريالي الأخير وهي راجعةٌ من المشفى مع زوجها الذي تركَ ساقيهِ هناك بعد حادثٍ مروِّعٍ، ترجئ انهياراتها إلى الغد، ترحِّلُ من يومٍ إلى يومٍ رفاهيةَ التَّفكير في الموت.

يحصدها منجلُ النكبات، بيدَ أنَّ الأم المرهقة لا تذوي، لا تيأس وهي تخوضُ بهمَّةٍ في نفق حياتها المظلم، تعملُ في القطاف والحصاد وتنظيف البيوت، تعملُ على تعطيل رغباتها وتجميد عواطفها وتأجيل انكساراتها، فتجمِّعُ أنفاسها كلَّما تعبتْ وتصرخُ في وجه انهياراتها يوميًّا: «لن أنتحرَ اليوم».

وبمرور الوقت تصيرُ المرأةُ الطَّافحةُ رقَّةً رجلاً... رجلاً حقيقيّـًا بكفِّين خشنتين وشعرٍ قصيرٍ وملامح ضائعةٍ لوَّحتها الشَّمس، ثمَّ لا تلبثُ أن تنبت في قلبها مديةٌ صغيرةٌ تخزُّها كلَّما فكَّرَتْ حتَّى بالبكاء.

تستيقظُ زاد الخير من سباتها الخاطف، تبدو لنفسها على درجةٍ من الهشاشة لم تلمسها من قبل، لا تُجمِّع العائلة حولَ المائدة مثل بتلات الوردة كعادتها، تكتفي بتوزيع الصُّحون على الجميع في مطارحهم، تشحُّ طاقتها، تنطفئ، فلا تزخرفُ الوجبةَ بأحاديثها الحلوة، لا تُسخِّنُ اللُّقيمات بدفء نظرتها، لا تحكي بنبرةٍ من أملٍ، لا تُعين ولا تساعد ولا تعرضُ الخبزَ المحمَّص على أحدٍ، يشعرُ الثَّلاثةُ بكل شيءٍ، إلا أنَّ أحداً لا ينبس، يأكلون في صمتٍ تاركينَ الكلامَ المستفيضَ لطقطقة الملاعق.

«يا خالة زاد الخير» تنقرُ النِّداءاتُ نحاس جمجمتها، تتراجعُ الملعقةُ عن فمها، وترنُّ مستندةً على حافَة الصَّحنِ، من الخارج تخبرها الطِّفلةُ الرَّسول أنَّ قريبتها العجوز الثَّرية تطلبها حالاً:

- بعد الغداء يا صغيرتي.
- قالت حالاً.
- ومن هي حت.... ولماذا تـ... طيِّب سألحقُ بكِ، أخبريها أنِّي آتية.

يخبطُ زوجها قبضتهُ بالجدارِ، يزجرها كي لا تذهبَ بإيماءاتٍ تفهمها جيِّداً، بيدَ أنها ترفع جسمها على قدمين من وهمٍ، تُبرِّدُ غيظهُ ببضع تمتماتٍ:

«لا تستعبدني كما تعتقدُ أنت... أخدمها بأجرٍ... وماذا يعني أنَّها ميسورة؟!.. لا شيء، وماذا يعني أنَّها تحسبُ نفسها اشترتني؟! لا شيء أيضًا... المهم ما أعتقده أنا، إنَّها مسكينة أُقسمُ لك أولادها السِّتةُ موزَّعونَ في بلاد الله الواسعة، ما يرسلونه إليها تعويضُ وحدتها فقط، كُل يا عزيزي وهوِّن عليك».

تتلفلفُ بردائها الأسود وبسمتها، تهرولُ بخطى متباعدةٍ لا رادَّ لها، لكأنَّها تدوسُ على مسامير عيشتها، لكأنَّ حتفها يتبعها كما عشب الطَّريق، من بيت العجوز تخرجُ أصواتٌ وضحكاتٌ وأصداءُ أحاديثَ كثيرةٍ، تستنتجُ منها أنَّ أحد المغتربين من أبنائها قد جاءها زائراً، كلبُ العجوز يميِّزها عن سواها بسلاسةٍ لا ينبح حين تمرُّ من أمامهِ، يهزهزُ ذيلهُ كالعادة، ويراقبُ مشيتها المألوفة، ستخدمُ الجميع... هذا ما فكَّرتْ به وهي تحاولُ التَّسلُّل إلى المطبخ باندفاعةٍ سريعةٍ: «إلى أين يا ابنتي؟! تعالي تعالي... جلستنا تنقصكِ، معروف وعائلتهُ هنا والأقاربُ كلُّهم» تشدُّها العجوزُ بجملتها المرتعشة، لا تعرفُ بماذا ترد، لكأنَّ اللُّغةَ تتنكَّرُ لها بغتةً، تدنو من الجمع بتحيةٍ باردةٍ، تخفضُ عينيها، وتنسى أنْ تُهنِّئ بسلامة الواصلين، تقعدُ بينهم كالغريبة للحظات، لكنْ سؤالُ معروف سرعان ما يشفيها من ارتباكها: «كيفَ حالكُ يا زاد الخير؟»، تُجيبُ بكلمةٍ واحدةٍ وكأنَّها تتهجَّاها: «بخير»، هي المرَّةُ الأولى التي تُسألُ فيها عن حالها بالذَّات، لم تختبر من قبل سوى عبارات من قبيلِ:

«كيفَ حالُ ولديكِ؟».

«كيفَ حالُ زوجكِ؟».

«كيفَ حالُ العمل؟».

تشتعلُ الأحاديثُ الجانبيةُ ثانيةً في حنايا المضافةِ، فيما يواصلُ الرَّجلُ اطمئناناتهِ الدَّافئةَ عنها، لا أحد يلمحُ تحليقتها إزاءَ اهتمامٍ ولو مُجامِلاً، لا أحد يلمح نفضات الحَرَج والارتباك، تشعرُ على حين غرَّةٍ أنَّها تستردُّ كرامتها من فكَّي العالم الوحش، ثمَّ لا تلبثُ تتذكَّرُ الغصَّةَ التي سكبتها لأسرتها في أطباق الحساء، فتعتذرُ وتهمُّ بالانصراف، إلا أنَّ صوتَ العجوز يوقفها: «انتظري»، من كومة الأكياس المصنَّفة بالأسماء تختارُ واحداً يحملُ اسمها، «جلبَ ولدي هدايا بسيطة للجميع... تفضَّلي»، تشكرها، تعصرُ عينيها كما لو أنَّ الدُّموعَ تتفلَّتُ منهما، وبامتنانٍ تحضنُ الكيسَ المتخم، في ركنٍ خبيءٍ خلفَ الباب تتفقَّدُ محتوياته... فستانٌ أزرق... وشاحٌ أزرق... زجاجةُ عطرٍ بعبوةٍ زرقاء...

في طريق العودة تبدو غيرها، تتبعها سحابةٌ من نباحٍ متواصلٍ، حتَّى الكلب لم يعرفها، لم تسلك طريقَ البيت، تحتَ شمس الظَّهيرة تدورُ زاد الخير في دروب البلدة المنعرجة، تتعثَّرُ مراراً، ترتطمُ بجدارٍ، تهوي في حفرةٍ، تدورُ على نفسها مثلَ نحلةٍ فقدتْ رشدها، مثلَ نحلةٍ زرقاء... فقدتْ رشدها.

يشعُّ النُّور من اللُّون العتيق، يتضوَّأ وجهها بالوهج الخفيِّ، ويشتعلُ صدرها بوخزاتٍ لذيذاتٍ لم تختبرها قط، يمرُّ الوقتُ قطاراً بخاريّاً يغلي بأحاسيس جديدةٍ، تعقدُ الوشاحَ حول عنقها، فيسيلُ الأزرقُ على جسدها الباهت، وتتوهَّجُ بشرتها وثيابها القاتمةُ المُطفأة، وإلى منزلها تعودُ بقلبٍ جديدٍ...

الجميعُ نيام، يحدثُ ذلكَ عادةً حينما يجثمُ الحزنُ فوقَ أعينهم، تلمُّ الأطباق الممتلئة، تدثِّرُ الزَّوجَ الغافي فوقَ الكنبة الوطيئة، وفي استهجانٍ تتأمَّلُ ولديها المتخاصمين على الدَّوام والنَّائمين مقتربَين، لا تتساءلُ كيفَ زحفَ أحدهما إلى جوار الآخر، لا تسحبُ الغطاءَ قليلاً عن رأسيهما كما تفعلُ عادةً، تكتفي فقط بتمسيد شعرهما، بين ولديها تجدُ لنفسها متَّسعاً، تشدُّ الغطاء مثلهما فوقَ وجهها، الغطاءُ الذي يهتزُّ ويجهشُ فوقها، يتهدَّجُ بنهنهةٍ مكتومةٍ وأصواتٍ مختلطةٍ لبكاءٍ وضحكٍ... ضحكٍ وبكاءٍ، الغطاءُ الثَّقيلُ الذي يُمسي فجأةً ناعماً ودافئاً كما لم يكن مرَّةً من قبل.

الغابةُ لا تموتُ دفعةً واحدةً

في يومٍ منَ الأَيَّام اختَفَت البسماتُ عنْ شِفَاه النَّاسِ، انسلَخَتْ عن المرايا وكأنَّها لمْ تكن، وتآكَلَتْ مسرَّاتُهم كالمُسَنَّات الصَّدئة في آلَةٍ ضخمةٍ مُعَطَّلَةٍ، وعلى الرَّغم من هول البلاءِ، فإنَّ أحداً لمْ يكترث، فقد تآلفَ الجميعُ مع الوضع الجديدِ، واعتادوا سريعًا وجوهَهُم الكالحةَ، حينها تمامًا ولدتُ، طفلاً ناشزاً بضحكةٍ فاقعةٍ، تفحَّصَت القابلةُ سحنتي في ريبةٍ، فكلُّ الرُّضَّع يبكونَ ووحدي كنتُ أُقهقهُ، حَمْلقَتْ بخصلة شعرٍ تهفُّ أعلى جبهتي، قرصتني مرَّتين، طوَّحتْ جسمي في الهواءِ، تحسَّستني لتتأكَّدَ أنِّي من البشر، ثمَّ أَمالَتْ رأسها نحو رفيقتها وحمحمت: «يبدو أنَّهُ على البركة مثلُ أُمِّهِ».

تفتَّحتُ كنخلةٍ وسطَ صحراءَ من آلاف المكتئبينَ المتشابهينَ، وتحوَّلَتْ عبارةُ «ابن الهبلة» التي طافَتْ على أفواه الأولاد إلى حصانةٍ مُبَكِّرةٍ ضِدَّ القتل، أماتَتْ شيئًا عميقًا فيَّ، ومنَحَتْ بقيَّةَ أجزائي لقاحًا ضدَّ ميتات الحياة المفترضة، لهذا قاومَ جسدي جيِّداً، وتصلَّبَت ابتسامتي على وجهي كما الجبس بسلاسةٍ وقوَّةٍ.

كانتْ أُمِّي عاقلةً بإفراطٍ وسطَ عالمٍ مخبولٍ بإفراطٍ، هذا ما كنتُ أراهُ كلَّما نظرتُ عبرَ حَدَقَتَيها، فعيناها أكثرُ النَّوافذ نقاوةً ونظافةً وشفافيةً، لذلكَ كنتُ قادراً بفضلهما على ملاحظة البياض الدَّقيق في المحيط

القاتم، وفي كنف المرأة الوحيدة تعلَّمتُ أنَّ أيَّامًا سوداء تمرُّ عليكَ قد تجعلكَ تُميِّزُ النُّورَ إلى الأبد.

عانتْ والدتي من تفاؤلي، ساءها أنِّي لا آخذُ خوفها بجدِّيةٍ، لا أنقمُ على معتدٍ، ولا أحسبُ حسابًا لتنمُّر الأطفال أو لخشونة الحياة أو للقهر الذي يحيقُ بنا من كلِّ صوبٍ، فقادتني من يدي إلى طبيبٍ نفسيٍّ في المدينة، قالتْ لهُ ومحجرُ عينها يضيءُ كالقمر:

«التَّفكُّرُ يُطِلُ البهجة، وأخشى أنَّ ولدي قاصرُ التَّفكيرِ، أريدُ دواءً يقوِّي عقلهُ يا دكتور».

الطَّبيبُ الذي حقَّقَ معي دُهشَ من امِّحاء البغض من خارطتي الشُّعورية، أخبرها بأنَّ ما يعوِزني ليس الذَّكاء وإنَّما الحقد، ذلكَ الذي يفضُّ براءةَ البشر ويُنْضِجُهُم مع الوقت، وأكَّدَ لها بأنِّي سأنمو بدنيًّا إلا أنَّي قدْ أظلُّ طفلاً في أسوأ الأحوال، لمْ تبقَ شهادةٌ أو جامعةٌ لمْ تشتمها أُمِّي في طريق عودتنا، حتَّى أبي الذي هجرنا قبل ولادتي لمْ يسلم من طعنات ألفاظها، صَبَّت جامَ غضبها على مفاصل أصابعها، فراحتْ تطقطقها في غلٍّ، غيرَ آبهةٍ بما خلَّفتهُ من انتفاخٍ واحمرارٍ، فورَ وصولنا نفَّذَتْ خطَّتها البديلة، فأَعطَتْ راديو منزلنا لجارتنا زهية وفوقهُ محبسها الفضَّة، أوصتها أنْ تجلبَ بهما حجابًا من عند شيخٍ معروفٍ، وتهدَّجَ صوتُها إذ ردَّدتْ ثلاثَ مرَّاتٍ في رجاءٍ:

«ذكِّريه يا أُختي... ليحفظَ بسمةَ ولدي من عيون النَّاسِ».

لَمْ تَذهبْ إلى الشَّيخ يومئذٍ بنفسها لأنَّها قدَّرَتْ أنَّهُ قَد يستهينُ بامرأةٍ «على البركة»، وقدْ لا يُسعِفُها بحجابٍ فعَّالٍ يحميني، أمَّا زهية التي تبرقُ بمصاغها كأسنان الغجريَّات فلا بدَّ ستنالُ تقديره.

عندَ المسَاء طَرَقَت الجارةُ الماكرةُ بابَنا، دفنتْ في قبضة أُمِّي أمانتها، ثمَّ دَلَقَتْ في أُذنِها كلاماً كثيراً، كانَ في جُلِّه تحذيريّاً كما وشت سبَّابتها المرفوعة، قالتْ لي في تكَدُّرٍ:

«إيَّاكَ ثمَّ إيَّاكَ أَنْ تفتحهُ، إنْ فعلتَ فسيحرقكَ الله وستغلقُ الشَّياطينُ فمكَ إلى الأبد... فهمتَ يا ولد؟!».

أومأتُ رأسي موافقاً، وانتظرتُ انصرافها ببسمتي العريضة، كانَ الحجابُ مثَلَّثاً من الورق، مطويّاً على نفسه بخفَّةٍ على طريقة الأوريغامي، قبَّلَتْهُ أُمِّي غيرَ مصدِّقةٍ، وبدبُّوسٍ علَّقتهُ ببطانة قميصي، عندها هزَّتني من كتفيَّ، وتمتمتْ بعينين غائمتينِ:

«والآنَ يا حبيبي لنْ تمسَّ قوَّةٌ بسمتَكَ الغالية».

ومع الوقت أضحى الحجابُ ملازمي كما ثيابي، فقدْ كنتُ أَشمُّ فيه قلبَ أُمِّي وأنفاسَها وذلكَ الحب الأقرب إلى زهر الحدندوق، وبالفعل فقدْ كانَ يحفظُنِي ويصونُني كالسِّحرِ، وكلَّما خلتُ أنَّ تعاسةَ العالم هزمتني شعَّتْ في صدري إرادةٌ أكبر... إرادةٌ بطعم محبَّة أُمِّي ورعايتها.

لـمْ أنسـهُ مـرَّةً، ولـمْ يحـدث أنْ أهملتـهُ، حتَّـى بعـدَ أنْ تجـرَّأتُ علـى شياطين زهية وفتحتهُ، وحتَّى بعـدَ أنْ قـرأتُ فيـه أُغنيـةً لعبـد الحليـمِ، ظـلَّ الحجابُ سرَّ قوَّتي وتعويذةَ أماني وجلابَ المسرَّاتِ.

كبرتُ واستطالتْ معي ابتسامتي، ولَـمْ يُصَـدِّق النَّـاس كيـفَ لمثلي أنْ يعـيشَ حيـاةً هانئـةً ومريحـةً، فالحيـاةُ المتواضـعةُ المغسـولةُ مـن النِّفـاق والتَّصَنُّع كانتْ وفقَ مقاييسهم تَقَشُّفـًا، ونظامُ غذائي النَّباتي المفصَّـل علـى قياس محفظتي كانَ فقراً عندهم وصحَّةً عندي، هرولتي من عملٍ إلى آخر كانـتْ رياضـةً وتجـارب جديـدةً وعنـدهم كانـتْ ذُلّاً، تشـرُّدي، عيشـتي الرَّديئة، كلُّ أسبابهم لمْ تنلْ من الأمل المتوهِّج بينَ شفتيَّ كالهلوسة، كـانَ واحدهم يُجرِّبُ إيذائي متعمِّداً ليُثبتَ أنَّ السَّعادة لا تـدوم، يُهينني فيقطـعُ شجرةَ هنائي، ولا يتركني إلا بعدَ أن يُدرك أنَّني غابـةٌ، تهـاوى منِّي شـجرٌ كثيـرٌ، لكـنَّ أحـداً لـمْ يحـد مـن خضـرتي وانتشـاري، راهنـوا دومـاً أنِّـي سأنكمشُ وأطأطئُ وألتحقُ صـاغراً بركـب المتجهِّمـينَ، وتغـامزوا كثيـراً: «ابنُ أُمِّهِ»، إلا أنَّني لمْ أركع، فالحجابُ كانَ معي.

لـم يكسـرني شـيءٌ، حتَّـى لحظـةَ غمغمـت البنـتُ التـي أحببتهـا بنبرتهـا المغوية:

«اتركني في سلامٍ أيُّها الأهبل».

ضحكتُ لها، وتركتها، لكن لمْ أتوقَّف أبداً عن حبِّها، لم أكره الرَّجل الذي تزوَّجها، ولم أكره نفسي، بقيتُ ممتنّاً لكوني موجوداً، وسعيداً لأنِّي

الحي فوقَ ترابٍ يغصُّ بالموتى، كيفَ لا وأنا أتذوَّقُ في شعشعة الشَّمس وفي تفتُّح الصَّباحات متعاً ليسَ يلحظها أحدٌ، كيفَ لا وأنا أَرسمُ في ذهني أفراحاً بليغةً للشَّقاءات اليوميةِ، حينَ بدأتُ أُسأَلُ عنْ سرِّ انشراحي، كنتُ أُحاولُ ألا يبدو وقعُ إجابتي صادماً فأجيبُ:

«الحفاظُ على السَّعادة بحاجةٍ إلى تمريناتٍ ومواظبةٍ وأشياء سريةٍ أُخرى».

كانتْ أجوبتي فظَّةً دوماً فيما يتعلَّقُ بالنَّيل من بشاشتي، لذلكَ سرعانَ ما انطَفَأت الأسئلةُ من حولي كشهبٍ محتضرةٍ، اعتادني النَّاسُ أخيراً، إلا أنَّهمْ لمْ يكلُّوا من قطع ما تيسَّرَ من عواطفي.

عامَ 2020 أصابت العالم حُمَّى الحروب والحرائق والأمراض والفيضانات، وطُرِحَتْ على الطَّاولة «سيناريوهاتٌ» عديدةٌ لنهاية العالم، وحدي في الكوكب كنتُ الحريصَ على ساعاتٍ من المرح أمضيها في مراقبة دودةٍ تتسلَّقُ داليةً هزيلةً، وحدي كنتُ الباشَّ الممتنَّ للنَّوائبِ، وفي اليوم الأوَّل من نيسان طرقَ شبابُ الحي بابي، فتحتُ ورغوةُ الصَّابون تكسو خدَّيَّ، فصاحوا في هلعٍ:

«ما زلتَ هنا!! زلزالٌ مُدَمِّرٌ سيضربُ البلد وأنتَ تحلقُ ذقنك؟! عجِّل والحقْ بنا، ننتظركَ في قبو مُحسِن».

عندما مسَحْتُ وجهي بالمنشفة كنتُ أعلمُ أنَّهُم يلهونَ في عيد الكذب، فعلوها في العام السَّابقِ، لكنْ لستُ أدري لمَ أفزعني منظرهم وهم يهرولونَ مبتعدين، حاولتُ أنْ أُغلق الباب، فتصادى صوتٌ في رأسي:

«وما يمنعُ الزِّلزال في عامٍ نحسٍ كهذا؟! تفادَ احتمال صدقهم واتبعهم».

وبالفعل تناولتُ معطفي وخرجتُ، لمْ أسمع الكلاب تنبح ولم تفقد الطُّيور رشدها كما أَخبرونا في المدرسة، قلتُ لنفسي:

«لن أَخسرَ شيئًا، وسأضحكُ معهم إن كانَ مقلبًا».

وفي مزرعةٍ مهجورةٍ ومتطرِّفةٍ لإقطاعيٍّ قديمٍ لمْ ألمح أحداً، نزلتُ درجات القبو في حذرٍ، انتظرتُ أنْ يهتفَ الشُّبانُ في وجهي: «انطلتْ كذبتنا عليك»، إلا أنَّ الخواءَ من هتَف، اصطنعتُ ضحكةً واهيةً وهمهمتُ:

«طبعًا كذبة... مفهوم، وهل يختبئُ الفَارُّونَ من الزِّلزال في قبوٍ أيُّها المُغَفَّل؟!».

وما هي إلاَ ثوانٍ حتَّى عاودني الصوتُ المُسْتفزُّ:

«وما أدراكَ أنتَ؟! لسببٍ ما قدْ يكونُ قبو مُحسن آمنًا حتَّى من الزَّلازل، ألم يأوِ سُكَّان بلدتكَ طويلاً في الحرب؟!».

تريَّثتُ قليلاً فالاحتمالاتُ كُلُّها واردةٌ، ولربَّما كانوا في طريقهم لجلب بقية الجيرانِ، بعد خمس دقائق لمْ أكنْ قادراً على الضَّحكِ، ولم أجرؤ في الوقت ذاتِه على الخروج، ظلَّ الصَّوتُ يترقرقُ في أُذنيَّ مُحَذِّراً، وكيما

أُسكتهُ تحسَّستُ جيباً داخليّاً في معطفي، تلمَّستُ بطانتهُ، ثمَّ خلعتهُ في رعبٍ، قلَّبتهُ، عجنتهُ بينَ كفَّيَّ، اكتشفتُ فجأةً أنَّ حجابي في المعطف الآخر، فكَّرتُ بالعودة جرياً، لكن بدا لي بيتي على الطَّرف الآخر للعالم، لمْ أفهم سببَ تعرُّقي، ولم أتمكَّن من تهدئة ساقيَّ، فالرَّجفةُ قدْ تغلغلتْ عميقاً فيَّ، كالمشرط خدشَ الحدثُ غشاءَ روحي، أظلمَ العالمُ دفعةً واحدةً، شعرتُ بالنَّزيف في أعماقي، سريعاً تفاقمتْ حماوتُهُ، كدتُ أنفجر من الضَّغط في جمجمتي، احمرَّتْ عيناي، انحنيتُ على رُكبَتيَّ، ثمَّ تهاويتُ يغشاني قلقٌ مهولٌ، كانَ لاصطدامي بالأرض صوتٌ يشبهُ تهاوي الحطب الثَّقيل، راحَ السُّعالُ الجَافُّ يرجُّني، صاحتْ أعماقي: «يا رجل... ماذا دهاك؟! الحجابُ ورقةٌ، مجرَّدُ أغنيةٍ»، لكنَّ جسمي لمْ يستجب، كانَ انهياري أسرعَ من تفهُّمي، مرَّ الوقتُ على قلبي حافلةً محمَّلةً بالعذابات، ضاقَ صدري، فاستكنتُ مقتصداً في أنفاسي، تثلَّجَ الهواءُ في رئتيَّ، تجمَّدتُ وكأنَّني من شمعٍ، قامَتْ إساءاتُ النَّاس من مدافنها، وتجمهرتْ ببشاعتها فوقَ رأسي، وفي تسارع الخيالات وتباطؤ النَّبض لمحته، الحجابُ المدسوسُ في جيب قميصي، لحظتها لم يعُدْ مهمّاً أبداً، فقدْ كنتُ أُصارعُ لالتقاط نَفَسٍ إضافيٍّ... ذلك النَّفَس الذي ظلَّ بعيداً إلى الأبد!

كفُّ الصُّوف المشمشي

الصُّـورةُ رائعـةٌ... لكنَّـهُ لا يكتفـي، ضـوءُ الفـلاش يشـتعلُ وينطفـئ كموسيقا راقصة، ينتقي فلتراً جديداً، المزيدُ من التَّنعيم والتَّفتيح والتَّعتيمِ، المزيد من التَّلوين والتَّدوير والتَّأثيرات اللانهائية، لمعاتٌ مختلجاتٌ على الحدقات المتَّسعة، حمرةٌ تخضِّـبُ الشِّـفاه وتوشِّـحُ الوجنـات الهابطـات، وبسمتان جاهزتان يمطُّهما في عنايةٍ على الفمين المغلقينِ، يهمهمُ دونَ أن يرفعَ نظرهُ عن الشَّاشة المضاءة:

«لنعيدها يا وجد، مرَّة أخيرة يا حبيبي».

ينتـزعُ الصَّـبيُّ جسـدَهُ مـن الـذِّراع الأفعـى، يقـاومُ احتضـانها الثَّقيـلَ بضربات مرفقيه وخبطات رجليه العنيفات، وهوووب يطيرُ الجـوَّالُ مـن بين الأصابع، يرتطمُ بزاوية الصينية الفضية، ينتثرُ زجـاجُ الشَّاشـة كفتـات الأنجمِ، الكسرُ رقم «7»، والأبُ الذي يعاين كلفةَ التَّصليح الباهظة بعين عقلـهِ، يسـتعملُ عقلـهُ أيضـاً في كـتم الغضـب الـذي شـبَّ فيـه علـى هيئـة اصطكاكٍ واضطرابٍ مفاجئٍ في الـنَّفَس، يثبـتُ الصَّـبيُّ كالتِّمثال، باليـدين يصمُّ أذنيه تفاديـاً لانفجار الوالدِ، إحداهما مختبئةٌ في كفٍّ صوفيٍّ مشمشيٍّ أمَّا الثَّانيةُ العاريةُ فترتجُّ على نحوٍ مفضوحٍ، يعبُّ الرَّجلُ شهيقـاً عميقـاً مع الإغماضة السَّريعة، ثمَّ يندهُ عليه بما تيسَّرَ لهُ من رقَّةٍ:

«لا تخف... تعالَ».

وإزاء الصَّمت المطبق الذي استطالَ أكثر ترتفعُ حدَّةُ الصَّوت المتهدِّج:

«قلتُ لكَ تعال».

تمشي الرِّجلان الصَّغيرتان نحوهُ في ريبةٍ، تحملان فوقهما الجسدَ المتردِّدَ والنَّظرةَ الباردة، يغرقُ في الأريكة من جديدٍ، وعلى فخذه الأيسر يُجلسُ ابنهُ حيثُ كان قبل دقائق، يتنهَّدُ قبلَ أنْ يشرعَ في تحقيقه اليومي:

– لماذا لا تفرح؟!

– ....

– طيِّب ماذا أفعل لأُفرحك؟!

– ....

– ألم نشتر اليوم رجلاً آليّاً؟

– بلى.

– ألم نلهُ في صالة الألعاب؟!

– بلى.

– ألم نشتر حلاوةً بالجبن وأقلام تلوين وشوكولا؟!

– بلى.

– ماذا تريدُ بعد؟!

– أريدُ الفردةَ اليسرى للكفِّ المشمشي.

يدفعهُ بعيداً عنهُ وكأنَّهُ فقدَ السُّلطة الأخيرة على أعصابهِ، بيدَ أنَّهُ سرعان ما يتدارك الأمر بقبلةٍ على اليد اليسرى المنمنمة الباردةِ، يعتصرُ حنجرته بحنانٍ اصطناعيٍّ رهيبٍ:

«غداً صباحًا... هذي اليد الناعمة ستكونُ في كفِّها الدَّافئ».

الطِّفلُ الذي لا يعرفُ كيف يبتسم يهزُّ رأسهُ، ويسألُ في لهفةٍ ضافيةٍ:

«تسمحُ لي أن أنام؟!».

يومئُ لهُ الوالدُ بالموافقة، فيهرولُ مندفعًا نحو السَّرير، يندسُّ تحتَ اللِّحاف كسهمٍ، يعتصرُ أجفانهُ لتخرجَ الغفوةُ سريعًا، بيده اليمنى المتدثِّرة بالصُّوف يحضنُ اليسرى اليتيمة، وبأحلامه يعانقُ الغدَ الذي سيجيء.

في الصَّالة شحيحة الإضاءة يلملمُ الأبُ الشَّظايا، يغمغمُ بشتائمَ مبهمة، يعيدُ تشغيلَ الجهاز مراراً، لحسن الحظِّ ما زالَ يعمل، يعودُ إلى الصُّورة الأخيرة، يكملُ في تروٍّ تعديلها، ثمَّ يرفعها على موقع التُّواصل، وما هي إلا ثوانٍ حتَّى ينبِّههُ طنينُ الإشعار... «اكتملَ التَّحميل».

صباحًا يستحيلُ الطَّريقُ غابةً من السِّحر المكثَّفِ، ضبابًا من السُّكر، غيمةً تمشي على قدمين، بيوتًا من الحلوى، فيلةً بخدودٍ ورديةٍ وغزالةً تحكُّ ظهرها بعمود الكهرباء، هذا ما يدورُ في مخيِّلة الطِّفلِ السَّعيدِ، الطِّفلُ السَّعيدُ الذي لا يعرفُ كيفَ يبتسم، أما في نظر الوالد المتجهِّم فالأمورُ أكثرُ من واضحة، طريقٌ موحلٌ حفرتهُ ورشةُ الصَّرف الصِّحِّيِّ، أناسٌ منطلقونَ بتثاقلٍ إلى أعمالهم، وشرطيٌّ ضخمٌ أمامَ المبنى الذى

ستتمُّ فيه المراسمُ الأسبوعيةُ من استلامٍ وتسليمٍ، على البابِ الحديدي الصَّدِئ يضمُّ ابنهُ لمرَّةٍ أخيرةٍ، يهمسُ في أُذنه:

«لا أُريدُ أنْ أراها، اصعد كالأبطال، وأعطني إشارةً من شبَّاك القاعة حينَ تصل، اتَّفقنا؟!».

الصَّبيُّ الذي يسقطُ فجأةً من ضباب السُّكر يشعرُ بيده اليمنى وهي تتعرَّى، يفصِّدُ والدهُ بتصويرٍ بطيءٍ وهو يسحبُ الكفَّ الصُّوفي ويدسُّهُ في جيبهِ، يردُّ تلويحتهُ بأُخرى بطيئة، ويصعدُ الدَّرج راكضًا، في الأعلى يغرقُ في أحضان المرأة الجميلة، تشمُّهُ، تقبِّلهُ، تردِّدُ عشرات المرَّات:

«اشتقتُ إليكِ يا ماما».

ينخطفُ من بين ذراعيها إلى النافذة، لكنَّهُ يعودُ خائبًا، فالوالدُ لم ينتظر الإشارة، يسألُ الأمَّ الملهوفةَ:

«أينَ الكف المشمشي؟».

تفتحُ المرأةُ حقيبتها، من بين أكياس الشيبس والبالونات والمصَّاصَّات الملوَّنة تُخرجُ كفَّ الصُّوف، وفي أصابعه المحبوكة تُدخِلُ الأصابع المرتعشة الحمراء، بينما يحدِّقُ الصَّغيرُ بأصابع يده اليمنى اليتيمة، ويبتلعُ ريقهُ مع الكلام الكثير.

في الشَّارع الجنوبي تتعالى أصواتُ المزامير وصياح السَّائقين على الرَّجل المترنِّح بين المركبات، والسَّكران بهاتفه النقَّال، ما زالَ يردُّ على

التَّعليقات المترقرقة كالعسل أسفلَ الصُّورةِ، لـمْ ينتبه كيفَ انسلَّ الكفُّ من جيبه الخلفيِّ، وكيفَ سحقتهُ سيَّاراتُ الطَّريق السَّريعِ.

في الشَّارع الشَّمالي تبدو الصُّورةُ رائعةً، لكنَّ الوالدةَ تعيدُ التقاطها بوضعياتٍ مختلفةٍ، تُنسِّقُ شعرها، ترتِّبُ شالها، وتنثرُ عباراتها في مسمع الصَّبي:

«عانقني الآن يا وجد... ألصق فمكَ بخدِّي... أحسنت هكذا تبدو القبلة الكبيرة».

«من دون الكف الآن يا روحي... انزعهُ... هيا لتكون الصُّورة أجمل».

«لا تستطيع؟!. انظر كيف... هكذا أحسنت».

تطلقُ الوالدةُ هتافات الرِّضا، تكملُ طريقها وهي تُقلِّبُ الصُّورَ الحلوةَ في انبهارٍ، وهنالكَ في الخلف حيثُ لم تنتبه أنَّ ولدها لا يزالُ واقفاً، ينكمشُ وجد في أسًى، لكأنَّهُ يضمحلُّ في المعطف المنفوخ، يراقبُ أمَّهُ التي لم تلتفت بعد، ينظرُ إلى الوراء، لا يرى التلويحة الموعودة كما هُيِّئ لهُ، يثبِّتُ جسدهُ جيِّداً كي لا تُطيِّره الرِّيحُ القوية، يرتعشُ مثل أشجار الطَّريق، ويعانقُ نفسهُ باليدين اليتيمتين الباردتين.

فكرة مهجورة

المدينةُ المستوحشةُ غصَّتْ فجأةً بالنَّاس، بَعضُهم يندفعونَ من أفواه العمَارات المهدَّمةِ، بَعضُهُم يرتجفون... يتدافعون... ويُلقونَ بأنفسهم من الشُّرفات العالية.

موجةٌ من الانتحار الجماعي تحلُّ في الأرضِ، ذبحةٌ من الجنون غير المُفسَّر ترعدُ في السَّماء وتبرق، رجالُ الدِّين يجتمعونَ في السَّاحة الوسيعةِ، يُصلُّونَ بطُرقٍ جديدةٍ، يستغفرون، يتطلَّعونَ في خشوعٍ إلى أعلى، ويُبَرِّرونَ الحدثَ بالمعجزة، العلماءُ أيضًا استولوا على شاشات التَّلفزةِ، يطلبونَ من الشُّعوب المذعورة التَّماسك، يؤكِّدونَ أنَّ شحناتٍ كهرومغناطيسيةً محمَّلةً بالأصوات والرَّوائح والذِّكريات تصطدمُ تباعًا بالكوكب.

«يا رب السَّموات أيعقلُ أنِّي الوحيدُ الذي حلَّ اللُّغز؟! الوحيدُ الذي لاحظَ تلاشي الحاجز الوهمي ما بينَ الأحياء والموتى؟!».

ألهثُ بينَ المهرولين، متاهاتٌ تفضي إلى متاهاتٍ، أهوي متفكِّراً، تظلِّلني ملامحُ أولادي، تُخيِّمُ قامةُ أبي على قامتي، ويسيلُ وجهُ زوجتي كالعسل على وجهي... كالنَّار على وجهي، فأهبُّ أعدو صوبهم «إلا خَدْشَ قلوبهم يا الله... إلا فَزَعَهم»، لا بدَّ أنَّ أُمِّي المرحومة تجولُ الآنَ بينهم، لا بدَّ أنَّ ولدي الشَّهيد قدْ فرَّ من فكرة إعدامه ميدانيًّا، ويستلقي اللَّحظةَ مرتاحًا في حجرتهِ.

في الطَّريق إليهم صادفتُ أصحابي من الموتى، حيَّاني أحدهم باشّـاً، ثمَّ سألني في تهلُّلٍ عن موقع منزلهِ، أجبتهُ دونَ أنْ أشهقَ أو أنخرطَ في البكاءِ، شيَّعتهُ بغمامتي أسًى وركضتُ.

دفعتُ برجلي بابَ بيتنا الموارب، دخلتُ كلصٍّ متوجِّسٍ، اضطرابُ الخارج، وعواصفهُ، كان في الخارج فقط، احتدامُ المسِّ العامِّ لـمْ ينلْ من جلسة أُسرتي المعتادة حولَ مائدة الغداءِ، كانوا قدْ باشروا طعامهم قبلي، لمْ أُعوِّدهم مرَّةً أنْ أمتعض، فأنا المتأخِّرُ دومـاً حدَّ تجويعهم، حتَّى حينَ لـم يـردُّوا التَّحيَّـةَ لـم أكـترث... كعـادتي أيضـاً، اقتعـدتُ كرسـيّاً قريبـاً، وهمَدتُ أتسمَّعُ إلى طقطقة الملاعـق وقرقعـة الصُّـحونِ، كـانوا يتحلَّقـونَ بشراهةٍ حولَ الحل، حل بدا أنَّهُ البلسمُ لجراحهم كلِّها، غمغمت ابنتي:

«نبيعُ هذا البيت».

خرجَ صوتُ والدي من عظام وجهه النَّاتئة:

«اضمنوا لي كبرتي... وبيعوهُ للقرود السُّودِ».

علَّقتُ قلبي كالفانوس في قاع عينيها، فتنحنحتْ وكأنَّها انتبَهَتْ، قالـتْ زوجتي:

«لا حلَّ إلا ذاك... نبيعهُ ونتبحبح».

«يـا مجـانين... يـا نـاكري التَّعـب... حيطـانُ البيـت مجبولـةٌ بـدمي... تبيعـونَ شـقاءَ العمـر!! حصـيلةَ الخـوف والكـدِّ والأرق!!» صـحتُ وقـدْ تباسقتُ بينهم كنخلةٍ، لكنَّ أحداً لـم تهـزّهُ صـرختي، تصـافحوا بنظراتهم، وابتسموا كدولٍ كبرى تقاسمتْ للتَّوِّ بلداً لا تشعرُ نحوهُ بالألم أو الحنين.

ناديتهم، بُحَّ صوتي، هُيِّئ إليَّ أنَّهم ماتوا يومَ انفَجَرَتْ جرَّةُ الغاز بهم، وأنَّني مُذَّاك متجمِّدٌ كمستحاثَّةٍ بينَ عقارب الزَّمن.

«طيِّبْ مِتُّم جميعًا!!!.. يعني إمَّا البيتْ وإمَّا العائلة!!!.. لا دمار أرحم من ذلكَ يا الله؟! هل ما يحدثُ لي حقيقةٌ فعلاً أم أنِّي المتداعي في غيبوبةٍ؟!».

فتَّشْتُ عن أيَّة إجابةٍ، نبشتُ عقلي، استقطرتُ ذاكرتي، وفي غشاوة الهذيان تراءتْ لي، حملقتُ بها كالأبله، ضيَّقَتْ حدَقَتيها، حملقت في وكأنِّي الفراغ، كانتْ صامتةً وشاحبةً، ومن فرط تعرُّقي كنتُ معجونَ الأضلع المثلَّجة، نزَلَتْ عن الجدار، تصعَّدَتْ وتائرُ الخفقان، اقتَرَبَتْ منِّي، زلزلتني، فلَمْ أحتمل، لقدْ كانَ شيئًا مهولاً أشبهَ بالنَّفيرِ، ارتجفتُ إزاءَهُ، تقهقرت، تراجَعْتُ، وألقيتُ بجسدي من الشُّرفة العالية.

«الميِّت لا يموت» دوَّى صوتها وهي تطوفُ في الأعلى كالشَّبح...

«الميِّت لا يموت» دوَّى وهي تمسحُ دموعي عن صفحة الطَّاولة العتيقة...

صورتي التي عدَّلَتْ على زاويتها شريطَ السُّولوفان الأسود هَتَفَتْ بصوتها المخنوق للمرَّة الأخيرة... «الميِّت لا يموت».

بابُ السَّماء

أنا الميِّت...

لستُ واثقـاً تمامـاً، لكـن هـذا مـا أبـدو عليـه، لا أراني، لا أشـمُّني، لا أسـمعُ وقـع أقـدامي أو نـداءاتي، ولا ألمـح عرقـي المنسـاح ثلجـاً فـوق رجفات البدن.

ميِّتٌ للمـرَّة الأخيـرة، راكـلاً كـرةَ الحيـاة إلـى الأبـد، خاتمـاً مآسـيَّ الجسـام، وهائمـاً علـى ذاتي فراغـاً كونيّـاً يبتلـعُ نفسـهُ، إذن مـا أسـهلَ الـزُّوال!.. مـا ألـذَّ الخـلاص مـن القهـر والخيبـاتِ، مـن الألـم والخـوف والجوع والمشي البطيء في جنازات الأحبَّة.

«هل مِتَّ حقّـاً! على رسلك يا رجل... كيف؟ متى؟».

تسألني نفسي محتارةً لكنِّي فعلاً لا أعلم، لا أذكر، أتهالك قبالةَ ساعةٍ، أَجدها تشيرُ في توقيت الأحياء إلى الرَّابعة عصراً، إنَّها مألوفةٌ جدّاً، الحائط كذلك، ملمسه الخشن، رائحـةُ البـارودِ، الأرضيـةُ المفروشـةُ بالقليـل مـن الأثاث والكثير من «الكراكيبِ» الرُّوحية...

حسنـاً ماذا أفعلُ في غرفتي؟! على الميِّـت أن يكـونَ في أي مكـانٍ إلا في بيته، ترى ماذا حدث؟ هل ارتعـدتْ روحـي إذ تعـرَّت فجـاءت تلتمسُ في الجدران جسمـاً؟ أم هدَّها الـوهنُ فعـادتْ منهنهـةً مـن شـوقها؟ أصـرخُ في لهفةٍ:

- يا ناديا... أين أنت يا ناديا؟!

تردُّ نفسي:

- يا أحمق أنتَ ميِّت.

أهمَدُ، أتملَّى الغرفةَ المزروعةَ بالألغام العاطفيةِ... الصُّورَ المؤرَّخةَ على قفاها... مطمورةَ اللِّيرات لطفلي الذي سَقَطَ على دَمِهِ، الوثائقَ المدرسيةَ لأخته التي راودها الطَّيرانُ كثيراً، كانَ لها حدسُ عصفورةٍ فطيَّرتها قذيفةٌ عاليًا... عاليًا جدّاً.

تهتزُّ الغرفةُ وكأنِّي أرقبها من خلف غلالة دمعٍ رقيقةٍ، ما زالتْ كما كانت، لا شيءَ تغيَّر، الحربُ داخلها في أواني المؤونة الفارغة، والحربُ خارجها في المسوخ الآدمية المتاجِرة بالحياة، سقفُها المقشَّر يعتلي سلالمَ المجاز، بعضُ أشياء القتلى منقوشةٌ بتمائم الأمَّهات الغائباتِ... جمعتها زوجتي في صمت المعاركِ، هو بيتي الوحيدُ الجاثمُ على خطِّ النَّارِ، والوحيد الممتطي ظهرَ الخرابِ، لا شيءَ يحرسهُ سوى ابتسامة ناديا وملاكين يجولان في عينيها الرَّحبتين، لقد حَرصَتْ دائماً على تزويدي بجرعاتٍ منتظمةٍ من الأمل حتى إذا ما غافلتني يوماً وتسلَّلت إلى الخارج صفعتها مثلَ معتوهٍ جبانٍ، خَلَّصتْ جثَّةً بندقيَّتُها وعادت، همستْ راجفةً:

- هذه لندافعَ عن أنفسنا.

صفعتها ثمَّ احتضنتها باكيًا، صحتُ مقهوراً:

- الخروجُ من الباب يعني الصُّعود إلى السَّماء... لماذا لا تفهمين؟!. لماذا؟! لماذا؟!

ردَّتْ بغلٍّ لم ألحظهُ فيها من قبل:

- إمَّا اللحاقُ بأولادي وإمَّا حمايتُك...
- سحقًا لي ولمرضي... هذه لن تحمينا.
- هذه قد تمكِّننا من القتال.
- أنا لا أُقاتل.
- أنتَ قمْ بما تراهُ مناسبًا... أنا سأفعل... صدِّق فيلسوفكَ الذي أخبركَ أنَّ قتالَ الوحوش يحوِّلكَ إلى وحشٍ مثلهم... صدِّق أحلامَكَ الخادعة.

في الحقيقة بلى... صدَّقت، رفضتُ أن أُصبحَ وحشًا فاستحلتُ فأراً حقيراً جدّاً، تُخيِّركَ الحربُ عادةً بينَ شكلين نهائيِّين لذاتك؛ فإمَّا الفأرُ وإمَّا الوحش، تعصرُ الإنسان بينهما... تخنقهُ، لم أمُت من نفاد الأدوية، لم أمُت من الحصار والدَّمار واشتداد الألمِ، ربَّما مُتُّ لأنها استيقظت ولم تقل: «صباح الخير»، أو لأنَّها لاصقت ذراعي كاليمامة ولم ترجني كعادتها أن أُمشِّطَ شعرها.

بحسب السَّتائر المدلَّاة والكآبة الفادحة هي ليست هنا، يركضُ فزعي كأرنبٍ في كل الاتجاهات:

- يا ناديا ردِّي... كلمة واحدة لتعلو الزَّنابق في هذا السَّواد.

- «أنتَ ميِّت» تُذكِّرُ نفسي فلا أكترث.
- يا ناديا أينَ قدماك تحيلان أرضيةَ البيتون إلى بحرٍ من الكاميليا! قولي كيفَ سأحتملُ روحي وحدي أنا النَّذلُ الذي ماتَ قبْلك! سأقيمُ على عتبات البيت منتظراً، لن نتدانى أو نتلامس لكنِّي سأصيرُ ظلَّك وسأذودُ معك عن ذكرياتنا الغالية...

يا ناديا لا خدَّ لي لأذرفكِ...

- أنتَ ميِّت يا مغفَّل... أنتَ ميِّت.
- تراها الآن تقفُ في طابور المنتظرين لتحصلَ على مقتلٍ طازجٍ؟! تراها ماتت؟! لماذا لم أصادفها إذن؟ ألا يلتقي الميِّتُ بالميِّت؟!

طيِّب يا ربَّ الكون لماذا لا نموتُ محمَّلينَ بمن نحب؟! لمن ستعيشُ البيوتُ المشعَّةُ بالأنفاس والعواطف وألعاب الأطفال؟! من سيمسح دموع البلد؟ من سيجبر انكسار السَّماء؟

الوثائقُ المدرسيةُ أم مطمورةُ الليرات...!

فجأة يتوقَّفُ دويُّ الرصاص، أستمعُ للمطر الخفيف وأبتل، يقضمُ الهدوءُ المريعُ أصابعَ الثَّواني، ثمَّ يطرقُ أحدٌ ما بابي...

«هل جاءت؟!... لكنَّها لا تدقُّ الباب».

يتدفَّقُ الصَّوتُ من الخارج:

«أنتَ هنا؟».

هو صوتُ جاري راعي المقبرة، لا يزالُ حيّـًا لحكمةٍ ما، يدخلُ الرَّجلُ مغمغمـًا:

«أنتَ بخيرٍ؟».

البائسُ لا يعلمُ أنِّي روحٌ منهارةٌ، يهمسُ كما لو كانَ يحدِّثني:

- وجدنا أخيراً وسيلةً للهرب... انتظرني هنا ساعة سأعود بعدها لاصطحابك.

السَّاذج يكلِّمني محدِّقـًا في بثقةٍ، يدنو منِّي، يمدُّ يده نحو كتفي الذي نَبَتَ فجأةً، فأنتفضُ من رعبٍ:

- أنا ميِّت.

يهزُّ رأسهُ دامعـًا:

- يلعن أبو الحرب... لم تكن أخرقَ هكذا قبلَ موت ناديا.

أكرِّرُ خلفهُ كالببَّغاء:

«قبل موت ناديا؟!».

يساعدني على النُّهوض فيتراءى لي جسدي الضَّئيل، يكوِّمني فوق الفراش، ويذكرني:

«لا حراكَ قبلَ السَّاعة».

فأسمعُ صوتي يئنُّ:

«قبلَ موت ناديااا..؟!».

طوالَ ساعة وأنا أسأل وأُجيب، أُجمِّعُ ذاكرتي مشهداً مشهداً، أبحثُ عن توضيحٍ ما، عن سببٍ يقنعني بأنَّ على ناديا أن تموت وعليَّ أنا أن أحيا بعدها. تحتدمُ المعاركُ مجدَّداً، يشتعلُ بركانُ القذائف والرَّصاص، وقبل أن يعودَ الرَّجلُ لأخذي يدوِّي صوتٌ ما في أرجاء البيت:

«هلا جدلتَ لي شعري؟».

أمسحُ بكمِّي خدِّي الرَّطب، وألملمُ قلبي المتناثرَ فرحًا، أفتِّشُ في كلِّ ركنٍ مثلَ طفلٍ يلعبُ الغمِّيضة... تحتَ السَّرير... في الخزانة... داخل صناديق المعونات ولا أجدها، أُفكِّرُ لوهلةٍ كما يمكنُ لها أن تفكِّر، أُفتِّشُ عن بارودة الوحش، أحملها على كتفي، أحتضنُ مطمورةَ الليرات والوثائقَ المدرسيةَ، ثمَّ أركضُ ملهوفًا نحو الباب، أفتحهُ، وأخرجُ مسرعًا إلى السَّماء لأجدلَ لها شعرها...

اسمهُ الحب

طقسٌ شتائيٌّ مهيبٌ...

الأرصفةُ غارقةٌ ببكاءٍ مسموعٍ، حبالُ الغسيل تتراقصُ في الهواءِ، الماءُ يسقي البقعَ الحمراءَ النَّاشفةَ على الإسفلت، وعجوزٌ سعيدٌ يحضنُ باقةَ الوردِ، يتبعهُ وئيداً وقعُ خطوه المنتظمُ، يحاذيه باصٌّ مترنِّحٌ، يرشقهُ بالوحلِ، وبنفثاتٍ متقطِّعةٍ من هباب العادم، لكنَّهُ يزدادُ تشبُّثاً بالابتسامةِ، وحدهُ من يبتسمُ، تحتَ المظلات يُعجِّلُ النَّاسُ الهربَ، كأعواد الكبريت يُبعثرهم شبحُ احتراقٍ مؤجَّلٍ، يزفرونَ بمشقَّةٍ كلَّما جفَّفت الرِّيحُ رئاتِهم، وفي مشقَّةٍ يشهقون، ترنُّ في أُذنه الجملةُ الفارَّةُ من حوارٍ بينَ رجلين:

«ليسَ القتل ولا الجوع ولا الدَّمار... ما يقودنا نحو الهاوية الأزماتُ الأخلاقية».

يتنازعُ طفلان ربطةَ خبزٍ، يتناحران، ويسقطُ الخاسرُ مغشيّاً تحتَ سحابةٍ سوداءَ، تميلُ أعناقُ الورد بينَ الكفِّين الكهلتينِ، وتُرهقُ انحناءاتِها خطوطُ المطرِ، يدسُّها في المعطف الثَّقيلِ، ينساها فوقَ قلبهِ، يتملَّى العابرينَ المسرعينَ، ويُهجِّئُ عبثاً إغماءاتهم السِّرِّيةَ، إنَّهم مبتورونَ من ذواتهم... باردونَ كالجثثِ، يوارونَ طعنات الحرب عن مدامعهم ولا ينزفونَ، ويوازنون فوقَ الرُّؤوس أرواحاً آيلةً للسُّقوط، شاخوا جميعاً فجأةً، تعالت من صدورهم ألسنةُ اللَّهب ومن أفواههم دخانٌ كثيفٌ

برائحة البارودِ، كلُّ ملامح البلاد تجعَّدتْ حتى جذوعُ التُّوت وفزَّاعاتُ الطُّيور وجواربُ البنات المكشكشة والأناشيدُ في كتب القراءةِ.... بنفسَجُها... أراجيحها... شُرفاتها... رؤاها... قبلاتها... سكاكرها الملوَّنة.

يتوقَّفُ العجوزُ ضعيفُ البصر ليلتقطَ ذاكرته، ويرتِّقَ أحلامهُ الشَّاهقة، هو لا يرى إلا العشبَ ينمو، والغيمَ يعبقُ مثلهُ بالبلل، هو لا يسعى إلا لعينيها، يُمسي حين يتذكَّرها صبيّاً بلا تجاعيدَ، وجسداً جامحاً خالياً من أيِّ ضغطٍ أو سكَّريٍّ ومن أوجاع الحياة والمفاصلِ، يسيرُ من جديدٍ تسبقهُ الهمهماتُ، يُخطِّطُ للِّقاء القريبِ، ويتدحرجُ نحوها كرةً من الفرح المضيءِ، وفي آخر الدَّرب الطُّويل تلوحُ لهُ، يلقاها بين الضَّباب والظِّلال الباهتةِ، يتأجَّجُ كوهج النَّارِ، يفركُ عينيه الغائرتينِ، يمسحُ جبهتهُ الموحلةَ، يتحسَّسُ باقتهُ الحبيبةَ، ثمَّ يهديها الوردَ بلهفة العاشقين... فلا تنطق، يتملَّى سحنتها الجامدةَ، يذبلُ أمامَ وجنتيها الشَّاحبتين، يُخرجُ من جيبِ السُّترة صورةً قديمةً مدمدماً:

«ما زالَ قلبي يخفقُ مذ قابلتك آخرَ مرَّةٍ».

تستمعُ إلى خفقاته الحرَّى، ساخنةً كانت وكأن لم يمضِ عليها ثلاثونَ عاماً، تستسلمُ للذِّكريات الهيوجةِ، يضعُ الباقةَ قربَ قدميها، وقربهما يجلسُ على دكَّةٍ وطيئةٍ، تجولُ أصابعهُ المخدَّدةُ بولهٍ فوقَ الصُّورة، يرتجُّ صوتهُ إذ يقول:

«علَّمْتِني من نظرةٍ أنَّ اللغةَ وحدها فقيرةٌ وشقيةٌ وقاصرةُ المآل وما زلتُ بعدك جالساً أتعلَّم، ماذا يمكنُ للخيبات أن تعلِّمَ رجلاً في الثَّمانين!؟ تعلِّمهُ أنَّ الإنسانَ بفظاعته وفظاظته لا يمكنُ أن يتربَّعَ على عرش التَّطور كما حَسِبَ داروين... تثبتُ لهُ بقوَّةٍ أنَّ هناكَ كائناً آخرَ أرقى وأسمى وأكثرَ احتراماً... اسمهُ الحبُّ».

يختلسُ نظرةً جانبيةً ليتأكَّدَ أنَّها تصغي، تبرقُ فوقهما وترعدُ، يختلجُ من بردٍ، يشدُّ المعطفَ فوقَ نحوله أكثر، يهمسُ بحروفٍ راعشةٍ تشبهُ الأنفاسَ الأخيرةَ:

«ليتك طلبت يدي للزُّواج، تضحكين!!! لا تضحكي، ليتك فعلتها، لما كانَ تسلَّلَ القدرُ إليَّ، ولما كنتُ مضطرّاً على الأقل إلى سرقة صديقي ذلكَ الذي صوَّرَ قنطرةً وما لاحظَ أنَّا تحتها... ذاكَ الذي سألني عن الصُّورة فكذبت... أنا بسببك سرقتُ وكذبتُ، وبسببك خدعتُ الموتَ وأجَّلتهُ، وانتظرتُ كأحمق الفتيان لقاءَ الحبِّ بالمنطقِ، ها أنا ذا أفتحُ عينيَّ لأحلم وأُغمضهما لأعيش... انظري كم بتُّ خفيفاً، تخلِّيتُ بعدك عن روحي، لكنَّ الرِّيحَ تلملمها وتحملها وتتبعني، تسبقني أحياناً على رؤوس أصابعها كلَّما عَلِمَتْ أنِّي أقصدكِ، الرِّيحُ مجنونةٌ... في الحقيقة أنا أيضاً وإلا كيفَ يعيشُ مثلي ويضحك ويراقصُ عكَّازاً حزيناً ويشتري الوردَ في ذكرى ميلادكِ، صحيحٌ... كلُّ عامٍ وأنتِ... ما تبقَّى من حياتي».

ينشِّفُ العجوزُ دمعه، لكن دونَ أنْ يخلعَ عن فمه ابتسامتهِ، لا يمسح السَّماءَ التي سالتْ على جلدة رأسهِ، يدفنُ الصُّورةَ في قلبهِ، وينتبهُ فجأةً للقاطعينَ خلوتهما يتساقطونَ ندفًا في خواء المكانِ، يقفُ من فزعٍ فتقفُ معهُ الرِّيح، يتمُّ حديثًا قصيراً مع ضوءٍ سماويٍّ خفيفٍ، يقبِّلُ خدَّ الرُّخام المشتعلِ، يلوِّحُ بذراع قلبهِ، ويتركُ القادمينَ يُزيِّنونَ وحدهم... المقبرة.

اختفاء

تَحدسَان بلقائِكُما قبلَ أن يحدث، تختلجان قبلَ بلوغ المكانِ، تتمهَّلُ الشَّمسُ الغاربةُ، يتمهَّلُ المشهدُ المذهَّبُ، يلوحُ لكَ وجهها المضيء، وتميِّزينَ جيِّداً ظلَّهُ فيما تتسكَّعينَ بضيقٍ في الشَّارع الطَّويل، تنزلقُ حقيبةُ اليد عن كتفك المرتعدة، تتهاوى غرَّتك فوقَ نظرتك الكابية، تتواجهان كالفجاءة، وكما يشعُّ البرقُ محتدّاً يتوهَّجُ عمودُ الإنارة فوقكما بالأةٍ حزينةٍ، بينكما حافلةٌ بطيئةٌ تمرُّ وناسٌ عابرون ورائحةُ خَبزٍ تفوحُ من محلِّ الكعك ومقصلةٌ مرسومةٌ في الفراغ، فوقكما بطٌّ مُهاجرٌ، وفي رأسيكما الدَّائخين تتعاقبُ الذِّكرى فيلماً قصيراً مُنْهِكاً، تحسبينَ أنَّهُ لم يعرفك فتشيحينَ عنهُ لهفتكِ، وتجزمُ أنَّها لن تلتفتَ فتُطلقُ نحوها أفراسَ روحك، يتعطَّلُ الوقتُ، تروغُ العصافيرُ، وتسقطُ عن كتف الشَّجرة الباسقة ورقةٌ دائخةٌ ومدوِّيةٌ، تتملِّيان في ما يفصلُ بينكما من سرابٍ جليلٍ فتدمعانِ، تراوحان عندَ عتبة الكلامِ، لا تنطقان، لا تلوِّحان، لا تجفِّفان أحداقكما، تزفران معاً بغلٍّ، ويلمعُ في السَّماء الشَّاهدة هلالٌ خائفٌ واهٍ، وبعدها تتوقَّفُ الحافلة، فتحجبُ الشَّمسَ والقمرَ وما تخلَّقَ من كواكب في المحاجر، تخطفكما أقدامكما المتعثِّرةُ كلٌّ في اتِّجاهٍ، تسيرُ مضعضعاً على رصيفٍ ذابلٍ، تُكلِّمُ الرِّيحَ، تربّتُ على قلبك، تنفضُ من نظرتك

صـورتها فيكـبرُ الخـواءُ فيـكَ، وخلـفَ المنعطـف تختبئـين في كفِّيـك المتعرِّقتين، تتكسَّرين، تضيعين، ولا تجدينَ بعدها نفسكِ.

أنـتَ المـتفحِّمُ في معطفـكَ الثَّقيـل... تشـتمُ الحيـاةَ الأُلعبانيـة الهزليـة، تحاولُ ترويضَ نبضـكَ الـذي لـن يهـدأ، تصـلُ منزلـكَ بـذبالتكَ الأخيـرة، تـدفعُ البـاب برجلـكَ اليمنـى، تطـوفُ في أرجائـه شـبحًا غريبـًا، يـتملَّاكَ باهتمامٍ نصفُ قالب الحلوى، أكلَ الأصـدقاءُ المحتفلـونَ نصـفهُ في اللَّيلـة الفائتة، وخلَّفوهُ على الطَّاولة بكـرزةٍ مجعَّـدةٍ على أنفـه وبالكريمـا الذَّائبـة تترقرقُ حممـًا على خدِّيهِ، تتهاوى في فراشكَ علَّكَ تتعفَّنُ مثله، تُحدِّقُ في الروايـة المسـتلقية قربـكَ علـى ظهرهـا، فيلتـبسُ فيـكَ الـرَّاوي الفرنسـي «ميسو» إذ كتبَ في النِّصف الأخيرِ من الصَّفحة:

«البارحةَ كان عيدُ ميلادي... ولكنَّني شعرتُ بأنَّهُ لم يعد لديَّ عمرٌ».

تُغلـقُ الكتـاب بإصـبعٍ عنيفـةٍ واحـدةٍ، تلعـنُ المصـادفةَ، تُغلـق صـدركَ جيِّداً، وتُقرِّرُ كالمُسَهَّدينَ أن تنام...

وأنـت أيتهـا الطَّائفـةُ كـأثر الخيـال في بيتـك الوسـيع، تبكـينَ بـلا سـببٍ واضحٍ، تبحثينَ عن هدأةٍ فجائيـةٍ في أعمالـك المتراكمـة، تُجمِّعـينَ نفسـك بين الأثاث وبينَ الثِّياب وعُدَد الطَّهوِ، تلمِّينَ فيما تهرولينَ شتاتكِ، تنسينَ، تعتـادينَ، تـذوينَ، تبهتـينَ، وفجـأةً تستسـلمينَ للـذكرى فتصـيرين أحلـى، تزهينَ، تأتلقينَ، ثمَّ تنفرطينَ دفعةً واحدةٍ بأوَّل تماسٍ دافئٍ مع الوسادةِ...

لـن تغفـوا، لكنَّكمـا ستشـدَّان أجفانكمـا جيِّـداً، سـتختفيان فجـأةً مـن السَّـريرين البـاردين، وتظهـران خطفـًا هنـاك... حيـث الشَّـمس الغاربـة والمشهد المذهَّب المتمهِّل، حيثُ البطُّ المهاجرُ وعمودُ الإنارة والشَّجرة والهلالُ الباهتُ الذي سيظهر مثلَ لمعـةٍ، هنـاك... حيـثُ سـيمحى النَّـاس العـابرون بينكمـا ورائحـةُ الكعـك والسَّـرابُ الجليـلُ ورسـمُ المقصـلة، هناك... حيثُ ستموتُ إلى الأبد الحافلةُ البطيئةُ التي لن تمر.

امرأةُ الثَّلج

رجلٌ ما «1»:

أجلسُ قربَ قَدَميها فيضحكُ النَّاسُ في الحديقةِ، أُقاومُ تصلُّبي وخمودي، أُثرثرُ منتشيًا فلا أُمكِّنها من التقاط النَّفَسِ، تبسمُ لي، فتلتفُّ روحي كخيط السُّكَّر حولَ صنَّارتها الواحدة، تتجمَّعُ كلَّ لحظةٍ، تتكاثفُ، وتمسي غيمةً من الغزل الشَّفيفِ، ترفعُ غيمةَ روحي كلَّ حينٍ لتقيسها، تتملَّاها وهي ترفُّ مع الرِّيح الباردة، تقارنها بعرض كتفيَّ، تقولُ بنبرتها الرَّاجفة:

«قليلاً بعد».

تشبكُ خيطَ الصُّوف بإصبعها المعقوف، ثمَّ تحكي لي عن طفلتي ذات ضفيرة البندقِ، تُصرُّ أنَّ لونَي شعرهما واحدٌ، تخفي شيبَ غرَّتها تحتَ المنديل الأبيض، ويركدُ الثَّلجُ الأبيضُ في المشهد الأبيض حولنا، تنبشُ فؤادي على مهلٍ إذ تسألني عنها، أقولُ مرَّةً: «نائمةً»، ومرَّةً: «تذاكرُ لامتحان العلوم»، ومرَّةً أثورُ وأتقهقر: «بربِّك ارحميني»، أشاغلها إن قبضَتْ على وجعي بكبَّة الصُّوف القرمزية، أقول لها والأبخرةُ تتصاعدُ بيننا من الأنفاس والكلمات:

«خبِّئيها، ستتلفُها نُدفُ الثَّلجِ، ما زالَ يعلونا ولم نزل نغرقُ فيه كزورقين».

تقولُ لي:

– ليتني أشمُّها...

– من؟

– شبيهتي... حفيدتي.

– قلتُ لك إنَّها...

– يا ليتني أشمُّها.

أمدُّ يدي في جيبٍ عميقٍ ببطانة المعطف، أسحبها كالخدَّجِ، أحملها في ودٍّ، أعلقها قبالتها في الهواء مثل ثُريَّا مضاءة.

– يا ويلي... ماذا فعلتَ، قصصتَ ضفيرتها؟

– أجل.

– متى؟

– الشَّعرُ بضاعةٌ «مخلوفةٌ».

– متى؟

تهوي الصنَّارةُ المعدنيةُ فوقَ الكبَّة، تتشابكُ خيطانُ الحبِّ، تخطفُ الكفَّان المجعَّدتان ضفيرةَ البندقِ، يحضنها الصَّدرُ المبتلى بالرَّبو في تحنان، تشمُّها الأصابعُ وتجاعيدُ الفم والوجنات، تصيرُ أمِّي بأكملها

حاسَّة شمٍّ خالصةٍ، فتقدحُ في قلبي الشَّرارة، تبلِّلني عرقـًا، تسألني ثالثةً: «متى؟»، وأُجيبُ منتحلاً ثقةَ الصَّادقين: «قبلَ العيد»، وأخنقُ الحقيقةَ التي تخلَّقتْ شوكـًا بحنجرتي: «قبلَ أن يضغطَ أحدهم زرّاً في حزامه النَّاسفِ».

لا تصدِّقني، والدتي امتدادٌ هائلٌ للطَّبيعة، من العسير خداعها، تكشفني من إغماضة عينيَّ، من اندغام شهيقين متلاحقين، تفتعلُ سعالاً أليمـًا، تنفضُ عنها الصُّوف والصِّنارة، تحكُّ رسغها الهزيل، تفركُ قلبها، وتغمغمُ بصوتٍ بالكاد يُسمع:

«أشمُّ يا ولدي رائحته».

لم أعرفُ قبلَ جملتها بأنَّ للموت رائحةً ظاهرةً، أبتسمُ لها في تصبُّرٍ، أحتضنُ جسَدها النَّحيلَ ملءَ ذراعيَّ، أحضنُ النَّومة وهي تحطُّ كأسراب النُّجوم فوقَ أجفانها البليلة الثَّقيلة، أتدفَّأ بعاطفتها المحترقة، فتهدأ الرَّعشةُ الهادرةُ في عظامي.

***

رجلٌ ما «2»:

سألني الضَّابطُ في المشفى من جديدٍ: «كيفَ ماتَ؟»، أقسمتُ لهُ ثانيةً أنَّني لا أعرف، جمَّعتُ التَّفاصيل من غبشة المشهد البعيدِ، وأعدتُ على مسمعه سردَ الحكاية...

«الحديقةُ العامَّةُ أمامَ بيتي، يرتادها يوميّاً، يخرجُ يوميّاً من جيبه ضفيرةً مقصوصةً وكبَّةَ صوفٍ قرمزية، يجلسُ ساعاتٍ ويرحل، كانَ غريباً عن الحيِّ لكنَّهُ وقورٌ وشديد التَّهذيبِ، لهذا لم يفكِّر أحدٌ أبداً في جلساته الطُّويلة على مقعدٍ معتادٍ، لكنَّهُ ازدادَ نحولاً يوماً بعدَ الآخر، باتَ أقربَ إلى كيانٍ مُتَخَيَّلٍ منهُ إلى رجلٍ، ومنذُ أيَّامٍ غطَّى الثلجُ المدينةَ وأقعدنا في منازلنا، هتفَ ابني اليوم:

«في الحديقة امرأةُ ثلجٍ».

فاندفعتُ إلى الشُّرفة مستطلعاً مع أولادي، لأتفاجأ بمنحوتةٍ ثلجيةٍ ارتدتْ بالفعل فستاناً وطرحةً، كانت الأولى بينَ قطيعٍ من رجال الثَّلج المنغرسين كالفزَّاعات في بياض المدينة، حينئذٍ كانَ الرَّجلُ الغريبُ يحضنها في انجمادٍ غير آبهٍ بالهبَّات الصقيعية التي جمَّدَتْ رموشهُ وورق الشَّجر».

قاطعني الضَّابطُ في حنقٍ:

«وكيفَ ماتَ الرَّجل؟».

أجبتُ مرتبكاً:

«ما زالت النساءُ تجذبُ الرِّجالَ المتعبين حتَّى ولو كُنَّ من ثلجٍ، والرَّجلُ الذي سوَّاها ودثَّرها حضنها كيما يُدفِّئها أو يتدفَّأ ربَّما... وظلَّ أيَّاماً على تلك الحال».

تمالكَ الضَّابطُ أعصابهُ، سألَ للمرَّة الأخيرة: «لا أريدُ إجابةً عن سؤالٍ آخر... هذه فرصتكَ النِّهائية لتشرح لي... كيف ماتَ الرَّجل؟».

تمالكت العواطف الجديدة التي انسربتْ إليَّ من المشهد البارد، أخذتُ نفسًا عميقًا حارقًا، وأجبتُ في ثقةٍ للمرَّة الأخيرة:

«لا أعرف».

قَواقِع

أنتَ لم تظهرْ في تحاليل الدَّم التي أجريتُها، لم يعثروا عليكَ حتى في صور الأشعَّةِ، ولم توصلهم إلى عينيكَ مطلقاً فحوصاتي السَّريرية.

الطَّبيبُ الذي كتبَ بالإنكليزية «Nervous Breakdown» أسفلَ إضبارتي، كانَ يعلمُ أنِّي لن أتمكَّنَ من الكلام فيما لو سألني عن السَّبب الصَّادم الكامن خلفَ انهياري، همسَ للممرِّضة التي توقَّفتْ فجأةً عن مطاردة القلم السَّريعِ:

«هذا حالُ النَّاجين من الحرب».

تردَّدت قليلاً لكنها سألتْ وعينها على خطِّه الملغز:

«حتَّى وأعراضها الجسديةُ مقلقةٌ إلى هذا الحد؟».

حدجها بنظرة لومٍ من فوق النظَّارة المنزلقة حتَّى منتصف الأنفِ، وهمهمَ بصوتٍ بالكاد يُسمع:

«تعلمينَ أنَّ الاكتئاب يترافقُ غالباً بآلامٍ جسديةٍ حادَّةٍ!».

الممرِّضةُ التي رمقتْ مجدَّداً قدميَّ المرتجفتين وازرقاق شفتيَّ المهذارتين تجرَّأتْ وردَّت بقلَّة تهذيبٍ:

«لو كانت والدتكَ من أصولٍ عربيةٍ مثلي لعلمتَ يا دكتور أن شعبها يعاني اكتئاباً جمعيّاً يصعبُ تمييزهُ حتَّى عن التنفُّس، اغفر لي أنْ أعتقدَ أنَّ ما حلَّ بها أكثر من اكتئاب».

دفعَ الطَّبيبُ المغتاظُ بالإضبارة الرَّقيقة بينَ كفَّيها، دسَّ في أُذنها كلمتين وانصرفَ تاركاً ردَّهُ على خدَّيها المضرَّجَيْن.

أغمضتُ عينيَّ بإحكامٍ، وتأرجحتُ كغيمةٍ بين وعيي وبينَ انعدامه، فلم أرَ وجهها وهي تمسحُ الزَّبدَ عن فمي، استمعتُ إلى إيقاع حذائها المبتعدِ، ثمَّ إلى قلبي المضطَّربِ، ثمَّ إلى الصَّوت الناعم الذي داهمني بغتةً:

«لماذا ينامُ الولدُ في الكرتونة؟».

لم أستطع فتحَ عيني، لم أتمكَّن من تحريك عنقي المتشنِّج، حاولتُ أن أُرتِّبَ ذاكرتي لكنَّها أيضاً لم تسعفني، الصَّوتُ الجميلُ لم ينتظر، عاودَ السُّؤالَ في حنقٍ:

«سألتك لماذا ينامُ الولدُ في الكرتونة؟».

انتفضتُ، تقلَّبتُ على الإجابة التي لم أستطع نطقها، انتثرتْ شهقاتي في فضاء الغرفة المعقَّمةِ، وهرعتْ ممرِّضةٌ أخرى لتعدِّلَ أنبوبَ المصل الذي انفصل عن ذراعي اليسرى. الصَّوتُ النَّاعمُ انتظرَ خروجها لينفردَ بي،

أطبقَ على وحدتي، فيما لم أقوَ بدوري على شدَّ مريولها لتبقى، سارعَ يكملُ كما لو أنَ شيئاً لم يكن:

«طيِّب خطأ، حرام، الهواء بارد، وستمطر».

ضاقَ نَفَسي، وضاقَ العالمُ، وضاقَ دماغي عن تحديد هوية المتكلِّم

«أرأيتِ.... بدأتْ تمطر».

شممتُ شذا المطر وفاحت رائحةُ البلل في غرفة العناية المركَّزةِ، الطَّبيبُ الذي حضرَ من جديدٍ مع نتائج الصُّورة الظَّليلة لم يجلب لي مظلَّةً، لكنَّهُ أخبر الممرِّضات اللواتي لحقنَ به بضرورةِ مراقبتي بدقَّةٍ.

وحدنا مرَّةً أخرى، أنا والصَّوتُ الرَّقيقُ الحادُّ، حدَّثني:

«هذه الولاعات للبيع أنا أعلم، فنحنُ لا نملكُ غازاً نشعلهُ».

سكتُّ فوقَ سكوتي فألحَّ:

«لماذا لا تنادين عليها مثل بيَّاع اليانصيب... خجلانة؟!».

جسدي الذي تصبَّبَ عرقاً تشبَّثَ بي، وأحكمَ عليَّ سيطرتهُ، الصُّوتُ الذي لم ينتبه لوهَنِي شرعَ ينبشُ أسئلةً حمقاءَ أخرى:

- لماذا لا تتكلَّمين؟
- لماذا لم يعد لدينا بيت؟
- لماذا تحملينني أصلاً... فقط لأنِّي لا أملكُ حذاءً؟!

– اليوم أين سننام؟ في البريَّة؟ إنْ شئت بين الشَّجرات... أنا لم أعد أخاف.

بدأ قلبي برسم ظلالٍ باهتةٍ لصاحب الصَّوتِ، وراحت تفاصيلهُ تنكشفُ أمامي كالإلهام قدَّام خلفيةٍ من بياضٍ، بتغنُّجٍ، وببطءٍ قاتلٍ، كلَّما شعَّ ملمحٌ منه ارتخى جسدي الثَّقيل، ضعفَ ارتباطي بهِ، لأجدني أمامَ سيلٍ من الإحساسات العجيبة المتداخلة، الصوتُ النَّاصعُ لم يصمت، تابعَ قصِّي من أطرافي:

«لماذا جئنا إلى البحر؟ إلى أين سنذهب؟».

بدا لي مألوفًا جدّاً، وحلواً... حلواً كعناقيد العنب، استدركَ:

«تعالي انظري، الرَّمل مليءٌ بالقواقع.... ما أحلاها!».

صعَّدَ نبرتهَ التي لم تلقَ من احتقاني التمثالي أدنى اهتمامٍ:

«ياه... هذي سفينة؟ لماذا لا تملكُ أشرعةً؟».

بدت عيناهُ واضحتين وبارقتين بدفءٍ، وتساؤلاتهُ أكثر رقَّةً وحلاوةً:

«هناك سنجدُ بيوتًا كثيرةً؟».

«ولن يكون هنالكَ المزيدُ من الكراتين؟».

«حسنًا... متى سنصل؟».

جسدي الذي انفصلَ عنِّي تركَ بيننا مسافةً ليستريح...

«عطشان يا الله... لماذا لا أستطيعُ الشُّربَ من البحر؟».

ازدادت المسافةُ شساعةً بيني وبينَ أضلعي المرتعدة، صرخَ الصَّوتُ المُلطَّفُ فجأةً:

«ماما سأقع... خبئّي لي القواقع معك».

«أمسكيني جيِّداً... ثبِّتيني».

«ماما لماذا لا تسمعينني؟!... أمسكيني... ماما... يا ماما...».

الصَّوتُ الذي برقَ كشعلةٍ قد قطعَ خيطانَ اتصالي بنفسي، وفجأةً رأيتكَ يا حبيبي بتمامك في الصَّوت الحنونِ، غير أنَّك لم تنظر إلى أسفل.

الممرِّضاتُ اللُّواتي لم يتعرَّفنَ عليكَ ولم يلحظنَ صعودكَ المضني إلى أعلى اضطربنَ، وحرَّكنني جاهداتٍ، هززنني، وصعقنني بالكهرباء، غيرَ أنَّهنَ لم يستطعنَ أبداً منعي من جمع القواقع واللِّحاق بكَ.

انسلاخ

«الحبُّ كالأطفال يتعلَّق ويخاف ويتطلَّب ويبرد ويعطش ويتألَّم ويتعلَّم وينمو ويكبر، وقد ينجرح ويحزن ويمرض ويذوي ويصفر ويموت».

سردتُ هذا على مسمعكَ ألف مرَّةٍ، ولو سمعتني من صدرك لكان لي في ذمَّتكَ ورد بالعدد ذاته، لو فهمتني لناصبتَنِي هَذَرِي، لكمَّمتَ الهاتف المرنان بربطة عنقكَ الخانقة، لخرجتَ من مكتبكَ الهادر راكضًا، وخلَّفتَ وراءكَ العالمَ المأزوم كالضَّبابة، لجلستَ ببزَّتكَ الرَّسمية المشدودة مثلي على عشب الطَّريق، لقطفتَ ورقةً من كلِّ شجرةٍ تمشي فوقكَ، وانتحلتَ ككلِّ المجانين هيئةَ الشَّاعرِ، لكتبتَ قصيدةً في كل فراشةٍ تحرقها أضواءُ اللَّحظات المنطفئة أو نحلةٍ تفتِّشُ عن نفسها في ألبوم الرَّحيق، لكنكَ لا تنظرُ في وجه طفلٍ يلهو بوحل الحديقةِ، لا تعرفُ كيفَ تميلُ معي كلَّما رَقَصَت الرِّيح حولنا كجنِّيةٍ مخمورةٍ، ولا تحاولُ ولو كذبًا أن تغنِّي، أنتَ تُجيبُ: «لا وقت» عن كل أسئلتي حتَّى تلكَ التَّافهة المتعلِّقةُ بالروايات الرَّكيكة وانقطاع المطر وانقباض المعدة وتقطيع بطِّيخةٍ باردةٍ...

ها أنا اليوم أنفدُ، ببساطةٍ، ببطءٍ، أُراقبُ آخِري وهو يمضي بلا عودةٍ كالرَّمل المتبقِّي في ساعةٍ مقلوبةٍ، أتحوَّلُ إلى غيري، لا طاقةَ لديَّ للمقاومة، ولا لتعديل مزاج السَّماء القاتمةِ، ولا لرسم الحبق على تعاسة الشُّرفات الخاوية، قمري الافتراضيُّ الجبَّارُ منهارٌ، أمانيَّ تتدلَّى منهُ مشنوقةً مثلَ «لمبة محروقة»، دكَّانُ جنوني مُغلقٌ، وكلُّ ما تتخيَّلُ من ألوانٍ ستحبسُ فيه إلى الأبد، سأشعلُ شمعةً بانتظاركَ وألعبُ الشطرنجَ وحدي، سأخسرُ هذه المرَّة، سأُحطِّمُ القلاعَ وأقلبُ الطَّاولة، سأضمِّدُ بالشَّاش ركبتي التي لم تنخدش، سأصفُّ رسائلكَ القديمةَ أمامي كتلاميذ المدارس، وسآمرها في تهدُّجٍ: «انصراف»، سأعدمُ المزهريَّات الفارغة بأبشع الطُّرق، سأتملَّى في المرآة وجهي الذي ما عاد يشبهني، سأنظرُ مرعوبةً في عيني المرأة التي أصبحتها، سأنامَ مبكِّراً كالتَّائبينَ، سأبتلعُ ما أجَّلتُ من حبوب منوِّمةٍ، سأعدُّ خرافَ الإله الرَّاعي، سأُعيدُ العدَّ كلَّما أخطأتُه، ولن أستسلمَ لغوايات الحلمِ، وإذا ما طرقتَ البابَ فلن أترامى إليكَ غزالةً مدمَّاةً لأفتح، سأدَعُكَ تسيرُ إليَّ على أصابع دهشتكَ، سأهتفُ لو سألتني: «ما بكِ؟»، «أنا لستُ بخيرٍ»، وحينما بالكاد تهمسُ مستوضحًا: «لماذا؟»، سأصرخُ بكل ما أُوتيتُ من وجعٍ: «لأنِّي مثلكَ أتغيَّر»، ستتسمَّرُ على تخوم البردِ، سيوجعك صمتي، سترِدُّ عن عينيَّ شعري، ستسيلُ عواطفي على خدَّيكَ حارقةً، وستتشقَّقُ أرضيةُ الدُّكَّان

السَّـماوي فتنهمـرُ البالونـاتُ كالمصـابيح وتتهـادى فوقنـا قصاصـاتُ الذكريات المنسية، سيُطلى اللَّيلُ بريشة نظرتك الجديدة، ستسيلُ الألـوانُ مجدَّداً على جبهته الغامقة، ستجرُّني من ذراعي إلى النَّافذة، وستقولُ مقوِّسـًا إلى الأعلى خطَّ الأفق دائـمَ الاستقامة بينَ شفتيكَ: «يا مجنونة اشـتريتُ كـلَّ أزهـار المدينـة»، سأصـدِّقُ وأنـا لا أراهـا، سـأثورُ وأدورُ، سـأزقزقُ وأشـهقُ: «آه صـحيح»، سأضـغطُ زرّاً من أزرار الـوهم المُطّيِّب ليهطلَ اللَّيلك من شقِّ دكَّاني على بيوت النَّاس أجمعهـا، ثـمَّ سـأتهاوى في الزَّاويـة لأبكـي، وستنضـمُّ إليَّ مُعتـذراً وتبكـي، سـيكونُ بكاؤنـا الغريـب أجملَ فرحٍ سنحياهُ وأكثره صدقـًا.

***

تدقُّ على ظهر الباب فتوقظهُ، تجفلُ نعجةٌ من خرافي فأكادُ أُعيدُ العـدَّ، لكنِّـي كتمثـالٍ أهَمَـد، أسـمعُ صـوتَ دنـوِّكَ خافتـًا، أشـدُّ المـلاءات على وجهي فأمحوهُ كأنَّهُ لم يكن، أسحبها ثمَّ أشـدُّها، أسـحبها ثـمَّ أراكَ أمـامي باهتـًا، منهكـًا، متوتِّراً ومشـدودَ العصـب، تحيِّينـي بإيمـاءة رأسٍ، لا تنتبـهُ لشكلي الجديد... لوجهي الجديد... لجسدي الجديد، ولا لآثار المعركة التي دارت في المكان، أفكِّرُ أن أنتظرَ سؤالكَ، أنتظرُ طويلاً، ثمَّ أسألُ مثلَ كـلِّ المهزومـات: «مـا بـكَ؟»، تقـذفُ معطفـكَ بعيـداً، تُقشِّـرُ عـن قـدميكَ الجوربين، وتتهالكُ على طرف السَّرير كجنديٍّ ناجٍ، تنهدُّ للخلف خطفـًا،

تزفرُ في تعبٍ، تغمغمُ بنبرةٍ خفيضةٍ متقطِّعة: «أنا... لستُ... بخيرٍ»، أضحك، أضحكُ بقوَّةٍ، وتدمع عيناي بالقوَّة ذاتها، أفكِّرُ في أن أنتظرَ سؤالكَ من جديدٍ كيما أُعلمكَ أنِّي أتحوَّل، ثمَّ أسألُ من يأسٍ: «لماذا؟»، تتجاهلني، ثمَّ تجيبني متعطِّفًا قبلَ أن تبتلعكَ الغفوةُ البعيدة:

«لا عليكِ... ألفُ مشكلةٍ جديدةٍ».

دبُّوس شعر

كانت المرَّةَ الأولى التي يغادِرُ فيها الزَّاوية، تلكَ التي يربضُ فيها بلا حراكٍ أو تنفُّسٍ. لثوانٍ شعرَ وكأنَّ أطرافَهُ تيبَّسَتْ تَماماً، تحرَّكَ ببطءٍ، شَدَّ ظَهرهُ، فأصدرَتْ مفَاصِلهُ قرقَعةً فظيعةً، تهادى أمامهُنَّ في الغرفة المعتمةِ، نفَثَ زفيراً طويلاً، طَوَّعَ عُنقهُ المتَغَضِّن، كمنْ يؤدِّي تمارينَ الحركة، ثُمَّ نظرَ إليهنَّ بحنقٍ، سألَ بنبرةٍ خطابيةٍ:

«تتساءلنَ عنْ سبَب الاجتماع؟».

لكنَّ إحداهنَّ لمْ تَدسَّ جواباً في أُذُنيه المنتظرتين، شَبَكَ أصابعهُ خلفَ ظهرهِ، وراحَ يتملَّى أعيُنَهُنَّ المنشغلة باستقراء المكانِ، غمغمَ:

«ماذا؟ تستغربنَ أنِّي أمامكنَّ؟ أم تستغربنَ وجودَكُنَّ، وهل اعتقَدْتُنَّ حقّاً أنَّ الغبارَ سيطمسني؟».

لم يلقَ أدنى ردٍّ، النِّسوةُ البائسات كُنَّ متنكِّراتٍ في أزياء حريريَّةٍ مُبْهِجةٍ، يُمَثِّلنَ بمشَقَّةٍ سعادةَ لقياهُ، يبتلعنَ ريقَهُنَّ كما لو كنَّ يشربنَ الشَّاي، لَمْ يتَغَامَزْنَ، لكنَّ شيفراتهنَّ السِّرِّيةَ قامَتْ بربط ردود فعلهنَّ على نحوٍ متطابقٍ، رأسٌ منحنٍ، شهيقٌ عميقٌ، عبثٌ بالأصابعِ... بالخواتمِ... بالأزرارِ... وبما انسدلَ أيضاً من شَعْرٍ.

النَّجماتُ المرتعشاتُ خلفَ النَّافذة منحنَ الأوجهَ إضاءةً شحيحةً، أمَّا المتحلِّقاتُ حولَ المنضدة المستديرة فقد كنَّ في حيرةٍ من أمرهنَّ، ارتجفنَ معًا وكأنَّ النُّورَ الباهتَ هو من قامَ بوخزهنَّ.

مشى ببطءٍ بينَهُنَّ، أخواتِهِ، بناتِهِ، أمّهُ، زوجَتِهِ، اجتهدَ في نبش المعاني المستترة خلف نظراتهنَّ الحيادية، وأياديهنَّ المضمومة، جاهدَ ليقرأ حركاتَ شفاههنَّ الصَّامتة، كانَ سكوتًا مُفْعَمًا بالهمهماتِ، البناتُ شاهدْنَهُ الغول الذي تخَيَّلْنَهُ في صِغَرِهنَّ، الأخواتُ شَاهدْنَهُ السَّجان، الأمُ العمياءُ لَمْ تَرَه، والزوجةُ لمْ تنظر إليه كي لا تتذكَّرَه، لمْ ترفعْ رأسها، ولكنَّها تذكَّرَت...

***

بعدَ نهارٍ غزير المطر عادَ، كانت السُّحبُ الدَّاكنةُ تتمزَّقُ والسَّماءُ تستردُّ زرقتها، دخلَ مبتلاً... مكدَّراً كعادته حينما يرجعُ من عمله الطَّويل، ألقى معطفهُ على مشجبٍ ذاوٍ، بدا الخُمُودُ المطبقُ مريبًا، تملَّى الأثاثَ الهامدَ، اشتَمَّ رائحةَ مكيدةٍ محتملَةٍ لربَّما حضَّرتها النِّسوةُ الثَّائرات، كانَ مفرطَ التَنَبُّهِ، إذ يمتلكَ ذاكرةً دقيقةً تحتفظُ بأضأل التَّفاصيل، لذلكَ فقدْ كانَ من البديهي أنْ ينتَبِهَ لقارورة العطر المكسورة تحتَ المغسلة، خطا باحتراسٍ، استقبلتْهُ تسريباتُ النُّور من تحت الأبواب المغلقة، تطوَّرت النُّسوةُ في الآونة الأخيرة، بتنَ أكثرَ جرأةَ على الخوض في المماحكات والمجادلات

الممنوعةِ، صرنَ أكثرَ صبراً على ما يتكَبَّدْنَهُ من خسائرَ ماديِّةٍ وبدنيةٍ ونفسيةٍ أيضاً، لمْ يفهمْ كيفَ امتَلأتْ أحلامهنَّ الفارغةُ فجأةً، صرنَ يُجاهِرنَ بأنَّهُ لا يمنحهنَّ قيمتهنَّ، غمغمَ مستهزئاً:

«لا يليقُ بهنَّ التَنَعُّمُ بالرَّاحة والأمان».

هو الذي ينامُ مفكِّراً في حاجاتهنَّ باتَ يدركُ كيف يمكنُ للنظرات الحانقات أن تنمو. ناداهنَّ، لكنَّهُ لمْ يلقَ ردّاً، دخلَ المطبخ، كانَ هنالكَ شبهُ إضرابٍ عن الأعمال المنزليةِ، فصحونُ الفطور لا تزالُ على حالها فوقَ المنضَدةِ، قنِّينةُ الماء في المنتصف ما تزالُ ممتلئةً كما تركها، إلى جوارها قِحْفُ الرُّمَّانة التي قَشَّرَها بيديهِ، حتَّى الأرضيَّةُ المتَّسخةُ بدَتْ بوضعٍ مُزرٍ للغاية، سرى الغضبُ في عروقهِ، توعَّدَهُنَّ في سرِّهِ، وفكَّرَ أنْ يشنَّ هجوماً على زوجتهِ، بيدَ أنَّهُ تراجع، تذكَّرَ نحيبها اللَّيلةَ الفائتةَ حينما انفرطَتْ دموعها كالعناقيدِ، همهمتْ بنبرةٍ ذليلةٍ:

«كلُّ هذا من أجل دبُّوس شعرٍ! أدميتَ ابنتكَ لأنَّها لم تنزعهُ كما طلبتْ، راعكَ أنَّ خطيبها الذي طردتهُ ككلبٍ قد أهداها إياه، أَخواتها الصَّغيراتُ يخشينَ وضعَ العطر خوفاً منكَ... بنتكَ المسجونةُ كالأُخريات، والتي لم تتعلَّمْ أو تعمل تتحوَّلُ مثلي إلى كرسيٍّ... بلى أنا لا أختلفُ كثيراً عن الكرسيِّ الذي تجلسُ عليهِ... كلُّنا يا عزيزي لسنا أكثرَ منْ أشباحٍ تحومُ في مدارك».

خطرَ لهُ أنَّ هنالكَ مصيبةً ما...

«مرضَتْ إحداهنَّ يا تُرى!».

«هربَتْ إحداهنَّ!!».

«عصيانٌ مثلاً أم أنَّهنَّ نائماتٌ مبكِّراً ليس إلا!!».

توجَّهَ ثانيةً نحو كِسَر الزُّجاج، تذكَّرَ سخطَهُ حينما أَوقَفَ أُختَهُ عن الغناءِ، تذكَّرَ صومها عن الطَّعام، جاشَتْ أعصابُهُ، هاجَ جسَدُهُ الوسنانُ، فركلَ بقدمه أصيصاً قريباً، أوقعَ المزهريةَ، وتعثَّرَ بسلك الهاتفِ، لمْ توقظ الجلَبَةُ التي أثارها أحداً، ثمَّةَ سباتٌ ثقيلٌ راحَ يشوِّشُ على خطاهُ. دخلَ غرفةَ البناتِ، تفقَّدَ الأسرَّةَ الخاويةَ، مسحَ النَّافذةَ المغشَّاةَ ببخار الماءِ، تعلَّقَ بصرُهُ بالبناء المقابلِ، من شبَّاكه بانَتْ صالةٌ تطوفُ فيها راقصاتُ الباليه كالفراشات المضيئةِ، في طابقٍ أعلى مرسمٌ أطلَّ منهُ رأسُ امرأةٍ تعصرُ ألوانها قربَ اللَّوحة الفارغةِ، هرعَ إلى حجرة الأخواتِ، كانتْ خاليةً أيضاً، فتحَ شبَّاكها، فتدفَّقَ الهواءُ الباردُ، وتغلغلَ فيهِ، تراءَتْ في الجهة المقابلة ومن خلف بابٍ مزجَّجٍ طبيبةٌ تُمَرِّرُ سمَّاعتها على صدر الطِّفلة الباكية، لم يجدْ زوجتهُ في غرفة نومهما، خرجَ إلى الشُّرفة التي يقصدها كلَّ يومٍ، فردَ نظَرَهُ فوقَ المدينة الوضَّاءة، فوقَ الشَّوارع المُذهَّبَة بوهج المصابيحِ، فوقَ الحياة التي لا تنتهي بدخوله المنزل، راودَهُ شعورٌ لم يستطعْ تفسيرهُ، لكنَّهُ لم يحتمل الانتظار، فقد بقيت حجرةٌ واحدةٌ...

في حجرِة الوالدة وجدهُنَّ جميعهنَّ، استقبلتْهُ أجسادُهنَّ المدلَّاةُ من الحبال السَّميكةِ، تفرَّجَ عليها وهي تتأرجَحُ بخفَّةٍ في الهواءِ، كانت الحبالُ النَّازلةُ من السَّقف قد التَفَّتْ بأناقةٍ على أعناقِهنَّ الطَّرية.

***

خَبطَ قَبْضَتَهُ على الطَّاولة، هتَفَ:

«كلُّ ذلكَ لأجل دبُّوس شعر؟؟».

همسَ بصوتٍ يختنق:

«أنْ تكنَّ لا شيء أفضلْ صدِّقْنني... الحياةُ قذرةٌ أكثرَ ممَّا تتخيَّلنَ».

لم يَنْبِسْنَ، انتَابَتْهُ رغبةٌ بسحب ألسنَتِهنَّ، لكن مثلما لا يستطيعُ أحدٌ إسكاتَ امرأةٍ حانقةٍ فإنَّ لا أحدَ بوسعه إجبارها على الكلام إن لمْ تَشَأ ذلكَ.

شرعَ الشَّرَرُ يقدحُ في أعينِهنَّ، يلمعُ أكثر، يشتعل، يهسهسُ، يتعالى، مخيفةً كانت الإضاءةُ الباهرةُ مجهولةُ المصدر وهي تأكلُ الظلمةَ قطعةً قطعة، وتجلو ملامحهُ بتمهُّلٍ، تَهَوَّشَتْ عليه نظراتُهُنَّ، جَفلنَ، واكتستْ أحداقهنَّ بالرُّعب، أربَكَهَ خوفُهُنَّ، تراجَعَ إلى الخلف، لملمَ شهقَتَهُ مِنْ أشداقِهنَّ المفتوحة، مسَحَ الغبَشَ عن مرآةٍ غائمةٍ، ارتَجَفَ، تملَّى هيكَلَهُ العظميَّ مرَّةً أُخرى، تلمَّسَ جَسَدَهُ، فاصطَّكَتْ عظامُهُ، لا جلد، لا بشرة،

لا لحم، كلُّ مَا بانَ منْه عظامٌ مُتَّصلةٌ بعضها ببعص وحسب، صاحَ بأعلى صوتٍ لديهِ:

«لستُ خائفاً منكنَّ... أنَّا ربُّ هذا البيت... أنَّا الرُّبَّان... أنا وليُّ أمركنُّ... أنا الرَّجل».

التفَتَ إليهنَّ محتدّاً، لم يكنْ هنالكَ أحدٌ، فالنِّسوةُ قد عدْنَ إلى صورهنَّ المعلَّقة على الجدارِ، تجمَّدَت الوالدةُ تحتَ سلَّةٍ على الكتف، وتَجَهَّمَت الزَّوجَةُ وهي تُعِيدُ شَبْكَ يَدَيْها أمامها، البناتُ والأخواتُ الواجماتُ تصَنَّمنَ وصِرْنَ مناظر، ثمَّ تَفَسَّخَتْ ملامحهنَّ تدريجيّاً تحتَ طبقات الغبارِ، وفجأةً انكمشَ، تضاءل، خطا إلى الزاوية بساقين ترتعدان، انزوى فيها دونما حراكٍ، رقدَ حيثُ يقفُ، ضمَّ إليه ساقيهِ، تملَّى العنكبوتَ وهو يعيدُ لصقَ شبكته بذراعه المطوية، استكانَ له، حنَّطَ جسدهُ ثانيةً، وبالتَّدريج... تماماً كما اعتادَ مذ تحوَّلَ آخرَ مرَّةٍ إلى كُرسيٍّ، ألصقَ ركبتيه بصدرهِ، نكَّسَ رأسَهُ فوقهما، أنَّ بِحرقةٍ، بكى، ومن خلفه راحَت الصُّورُ تتفرَّجُ بصمتٍ على لوحَيْ كتفيه المرتجفين.

امتدادات

أنا ظلُّه، أُلازمهُ، أتبَعُهُ، أنجَرِفُ مَعَهُ، أترجرجُ خلفَهُ، أَتعلَّقُ جيِّداً بقدميه، أتحرَّكُ حولهُ كعقرب السَّاعة، أنحني عند الصُّعود، أنكسرُ قربَ الحوائطِ، أنزلقُ بيُسْرٍ في مساراتٍ أُفقيَّةٍ وأخرى إهليليجية، ولدتُ معهُ، كبرتُ معهُ، أشبههُ لكن دونما تفاصيل، التَّفاصيلُ هي كُلُّ ما يفرقُ بيننا، هي كلُّ مَا دفعني فجأةً إلى هجرِهِ...

لوَّحنا يومها لابنته في الميناءِ، لحظةَ حملتها السَّفينةُ إلى بلادٍ بعيدةٍ، تكوكبتْ في حَدَقَتيه التماعاتٌ من الودِّ، هتَفَ بصوتٍ مخنوقٍ بالكاد خرج: «لن أموتَ في انتظارك»، بيدَ أنَّهُ سرعانَ ما أَظلَمَ مثلي، خَبَتْ عيناهُ الفوَّارتان، خفيفًا صارَ... يابسًا... هامِداً، حاولتُ جَرَّهُ، لكنَّهُ ازدادَ تشبُّثًا بعصاهُ المغروزة في الرَّمل، أمضى بقيَّةَ مسائه يصرخُ على الشَّاطِئ، لَمْ أَستَطع تمييزَ الأغلال التي كبَّلَتْهُ، لكنِّي أدرَكْتُ حينئذٍ أنَّهُ كَبَّلَني مَعَه.

حبسَني بعدها أيَّامًا في سريره، ومن ثمَّ في صندوق الألعاب القديمة، بدافع الحنين صرتُ عبداً لذكرياتهِ، يُنَقِّلني معهُ من حجرةٍ إلى أخرى، تكاثَرَتْ نقمتي، انقَسَمَتْ كخلايا نشِطَة، راحَ يخلعني كُلَّ مساءٍ كما يخلعُ قَميصَهُ، زرّاً فآخر، ذكرى فأُخرى، لا زيارات، لا رياضات، لا أماكنَ أُخرى أو اكتشافات جديدة.

كابَرَ صاحِبي كثيراً، طَفقَ يزرعُ الفلفلَ الأحمر، يقرأ الوثائقَ التَّاريخيةَ، لكنَّهُ باتَ أكثرَ حساسيةً للأذيَّاتِ، موت الأصدقاءِ، هجرة الأحبابِ، ضياع صورةٍ أو مفتاحٍ، كل تفصيلٍ مؤذٍ مهما بلغَتْ تفاهَتهُ باتَ خنجراً يندفعُ عميقًا في لحمهِ، بدأ يتقلَّصُ وكأنَّ أحداً ما يقومُ بنهشِهِ، نَفَرَتْ عُروقُهُ، لَمْ يعدْ قادراً على المشي، لكنني ظللتُ أتدلَّى من قدميه كلَّما تجوَّلَ في كرسيِّه المدَوْلَبِ.

لمْ يَعُدْ يصرُخُ كعادَتِهِ، باتَ يتجاسَرُ كثيراً، يكبتُ انفعالاته الحزينةَ، يبتلعُ أنَّاتِه قبلَ خروجها، غيرَ أنِّي ما عدتُ أحتمل آلامهُ وهي تنخرُ كينونتي الباهتة، هو إنسانٌ يشيخُ وأنا ظلٌّ فَتي، لم أهرمْ مثله، لم أَتَغَضَّنْ، أقعدَني معهُ برجلَيْن سليمتينِ، دَبَّتْ في رغبةٌ عارمةٌ بتجريب الحياة، أنا أقوى، أجمل، وأستحقُّ ألا أكونَ امتداداً فقطْ.

كانَ نائمًا لحظةَ أفلتُّ منهُ، توقَّفت السُّخونةُ التي تتدفَّقُ عادةً من قدميهِ، لم آبه للحميميَّة التي فقدتها، سارعتُ أتشقلبُ كالقِرَدَةِ، أركضُ، أقفزُ، أزحفُ، أرقصُ. استيقَظَ متعرِّقًا، تغَيَّرَتْ ملامحهُ، تشنَّجَ، ربَّما لاحظَ شيئًا، بحثَ عن نظَّاراتِهِ فوجَدَها، تفَقَّدَ دواءَهُ فعثَرَ عليهِ، فتَّشَ عن ظلِّه فلم يجدني.

سرتُ مزهُوّاً في كل مكانٍ، أستَوي كلَّما استوَت الأرضُ، ألتوي كلَّما التَوَتْ، أنحَدِرُ معها، أرتفعُ معها، إلى أنْ تملَّكَني إحساسٌ غريبٌ بأنِّي لستُ أكثَرَ من لصاقةٍ قاتمةٍ تجولُ في سطح قشرتها، تنقَّلتُ كجيفةٍ في

العالم السُّفلي الوطيء الذي بدا لي مختلفاً عن ذلكَ الذي عشتُ عمري فيهِ: «تُرى هل كانَ الرَّجلُ امتدادي العلوي؟ ارتفاعي؟ البُعْدُ الذي منحَني حجماً؟»، أمضَيتُ وقتي حائراً، أتساءلُ فيما الأقدامُ تدوسني، تتعاقَبُ عليَّ، بدا لي وقعها مُدوِّياً، مُذلّاً، مُهيناً بلا انتهاءٍ.

في شيءٌ كاللَّطخة السَّوداء، تخلَّقَ فجأةً، تضَخَّمَ بالتَّدريجِ، أذْكُرُ تلكَ اللَّطخات جيِّداً كانتْ تخرجُ مع دموعه كلَّما تشكَّلَتْ، مع صرخاته كلَّما صرخَ، أدركتُ سريعاً أنْ لا وسيلةَ لتصريفها، وأنَّها لا شكَّ قاتلتي.

عُدْتُ إليْه منكسراً، فتَّشْتُ عنْ نظَّاراته وعلب دوائه حتَّى وجدتها، بحثتُ عنهُ فلم أعثرْ عليه، بحثتُ ثانيةً وثالثةً إلى أن اكتشفتُ أنَّ العجوزَ الذي كنتُ ظلَّهُ قدْ مات!

يومَ دفنه لم يلحظني أحدٌ، اختلطتُ بالظِّلال الكثيرةِ، رافقتُ المشيِّعينَ وهم ينزلونهُ في الحفرة الطَّويلةِ، وحدهُ رآني بعينينِ مغمضتين أنزلُ معهُ، نظرتُ إليهِ، شاهدْتُهُ وهو يستحيلُ إلى تُرابٍ، شاهَدَنِي وأنا أتَأَنْسَنُ، تطلَّعَ إلى آثار أقدامه تمرُّ على جدران الحفرة، حملقَ في كمنْ يكتشفُ سرّاً كبيراً، تهالكتُ قربَ قدميهِ، استلقيتُ فوقهما، تكلَّمْتُ لأوَّل مرَّةٍ: «أخْلَفْتَ وعدَكَ»، راقبني باندهاش، بحرقةٍ، بأسى، انتَظَرْتُ أَنْ يصرخَ، لكنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ.

ميثوزيلا

لـن تمـوتَ... هـذا مـا تؤكِّـدهُ لتلامـذتكَ كلَّمـا توافـدوا إليـكَ مهلِّلـينَ لبحثٍ علميٍّ جديدٍ، تنطِقُهـا بتُؤَدَةٍ، تشـحذُ افتتانهم بالشَّبابِ، ثـمَّ تُنَحِّـي الموتَ مـنَ أحاديثكَ التَّاليـة، تكبـتُ تخوُّفكَ منه مـع يقينكَ بأنَّه حقيقةٌ بديهيةٌ، أشعرُ فيما أُتابعكَ بأنَّ هنالكَ قهقهةً سرِّيَّةً تسري في ذبذبات الهواء من حولكَ وتتقطَّرُ في جمجمتي بسريَّةٍ تامَّةٍ: «لـن يمـوت»، كانـت العبـارةُ المعذِّبةُ تطنُّ في رأسي بقهرٍ... بغلٍّ... بحرقةٍ. أيُّها العجـوزُ المعتَـدُّ بنفسِـه أنتَ لَمْ تَرْضَـخْ حتَّى للشيْبِ، للشَّـفَة السُّـفلى المرتجفـة، للرعـاش وآلام المفاصلِ، للتَّجاعيد التي نالَتْ من جسمِكَ وحفَرَتْ فيه عميقـًا، مـا زلـتَ تُحارِبُ بطريقة دون كيشـوت أعـداءَكَ الافتراضـيين مـن كائنـاتٍ مجهريَّـةٍ وآفاتٍ جسمانيَّةٍ واختلالاتٍ جينيَّةٍ قاهرةٍ، تُناضلُ بشراسـةٍ في سـبيل زيـادة المسافة بينكَ وبينَ القبر المُنْتَظِر سنتيمتراً إثرَ الآخر... في سبيل إطالَة عمر مادَّتِكَ، أمَّـا أنـا فمـا زلـتُ أسـألُ نفسي في كـل يـومٍ إن كـانَ متوسِّـطُ عمـر خلايـاك هـو عشـرة أعـوامٍ كمَّـا تقـول... ألا يعنـي ذلـكَ أنَّ جسـدكَ الآن -والذي تناضلُ في سبيل تعزيز وجوده المـادِّي- لـيسَ ذاتـهُ قبـلَ عقـدٍ مـن الزَّمانِ؟!

طيِّب يا عزيزي إن كانت البكتيريا أكبرَ عمراً من التُّراب، وإن كانَ عمرُ الكون حتَّى هذه اللَّحظة هو «13,7 مليار عام» كما تكرِّرُ في كل مناسبةٍ...

فما الذي يمكنُ أنْ تشكِّلَهُ أنتَ ودراساتكَ وأحلامكَ وأعمالكَ وطموحاتكَ وموروثاتكَ وكلُّ الأفكار المعتملة في رأسك؟؟ وما نسبةُ الثواني التي تقيسُ التغييرَ فيك من عمر الزَّمن؟

تدخلُ ممرِّضَتكَ مع نتائج الفحوصات والتَّحاليل الدَّورية، تفتحُ المظروفَ، تنبسطُ عضلاتُ وجهكَ، تَعبُّ نفساً عميقاً، وتستريح، تمدُّ لها ذراعك، فتلفُّ حولها مقياسَ الضَّغط، وتلفُّ في رأسكَ عشراتُ الخواطر...

«عَكْسُ الشَّيخوخَة» هو الهدفُ الأخيرُ لكَ على هذه الأرض، كنتَ واثقاً بأنَّ من أعدَّ أُسطورة جلجامش لدغدغة فكرة الخلود، لم يعلم حتماً أنَّ الفكرةَ قدْ أنجَبَتْ كائناً شفَّافاً بحجم ظِفْر الخَنْصَر اسمهُ «قنديلُ البحر» وبإمكَانِه العيش إلى الأبدِ، تعَاظَمَتْ رَغَبَاتُكَ باضطرادٍ مع نَجَاحَاتِكَ، وبتَّ تسعى لأن تَتَقَنْدَلَ مثلهُ و«إلى الأبد» مُجَلَّلاً بُمَنْجَزَاتِكَ العلمية ونضالكَ البحثي الطَّويل، أذكرُ صوتكَ منذُ عشرة أعوامٍ وأنتَ تقرأُ بصوتٍ عالٍ كلماتِ شكسبير:

«على عمق خمس قاماتٍ كاملةٍ يقعُ والدي ومن عظامه يُصْنَعُ المرجان، وتلكَ هي اللآلئ التي كانتْ عينيهِ... فلا شيءَ منهُ يذبل».

في مساء اليوم ذاته ارتفَعَ صوتكَ أكثَر فيما كانتْ حدقتاكَ غارقتين في مجلَّةٍ علميَّةٍ وكأن لِتُسْمِعَني... وكأنْ لتذلَّني:

«وقد احتفَلَتْ شَجَرةُ ميثوزيلا دونَ صخبٍ يُذْكَرْ بمرور 4840 عامـًا علـى ميلادهـا، وهـي فصـيلةٌ مـن الصـنوبرِيَّات المخروطيَّـة التـي تتكـتَّمُ مصلحةُ الغابات الأمريكيَّة وبسريَّةٍ مطلَقَةٍ على أماكن وجودهِا الدَّقيقـة في صحراء موهافي».

شاهدتُ عندئذٍ الأغصان تنبثِقُ منكَ، وشممتُ رائحةُ الرَّاتنج تعبقُ منْ أصـابعكَ النَّحيلـة، رأيتـكَ مخضـرّاً... تخيَّلتُـكَ شـجرة الميثـوزيلا، أذكـرُ جيِّداً الدَّمعَ الذي فاضَ من أحشائي وعجزَ لحرقته عن الخروج...

بالمناسبة أنا الـذئبُ المحنَّطُ هنـا أمَامَك، ألا تـراني؟ دقِّق قليلاً، إلـى جوار الدَّرقة الدَّاكنـة التـي آوتْ في يـومٍ مـن الأيَّـام سـلحفاةً برِّيـةً ضـخمةً، تحتَ حدوة الحصان وقرن الغـزال المعلَّق على الجـدار بمسـمارين، أنـا الحيـــوانُ المتخشِّـــبُ ذو العينـــين الصـــفراوين والأُذنـــين الحـــادَّتين الكبيـرتين... القــابعُ معــكَ في زاويــة الحجـرة الشَّاسـعةِ، ذات اللَّمســة العصـريَّة والسَّـجاد الفيـروزي، والـذي تحـرَّرَ بفضـلكَ مـن الماضـي والحاضـر والمستقبل، أتابِعُـكَ وأنـتَ تحتسـي شـايـًا بالنعنـاعِ، تُقَلِّـبُ في كتـابٍ ثخـينٍ، تضَـعُ سـاقـًا علـى سـاقٍ، أحملـقُ فيـكَ بسـرِّيَّةٍ مبـالغٍ فيهـا، أراقبُكَ، فيما تنظرُ إليَّ بأجفانٍ رخوةٍ وكأنِّي وهمٌ غيـرُ موجـودٍ، منذُ ثلاثـة عقــودٍ وكُــلُّ مــا حــولي يتغيَّــر... الأثــاث... السَّــتائر... الفصــول... الضُّيوف... حتَّى شكلكَ ذاتهُ، أنا دومـًا الثَّابـتُ الوحيـدُ، أنـا الحـيُّ وسـطَ الجدران الصَّلدة والأضواء الجانبيَّة الخافتـةِ، لـم تَسـتغن عنِّـي لـيس لأنِّـي

«إكسسـوارٌ مـتَمِّمٌ للـدِّيكور» العـام وحسـبُ، بـل لأنّـي أوَّلُ إنجازاتـك أيضـًا... صح؟ بل ورمزٌ حـاذقٌ لتفوُّقِكَ البشـري، لقدْ كـانَ مـوتي شـهادةَ «قَتَـلَ الخَـوفَ» التـي طالمـا فَخِـرتَ بهـا شـأنها شـأنُ الميـداليات الكثيـرة المُدَلَّاة من عنقكَ المُخَدَّد. قتَلَتنِي يا سيَّدي ببراعةٍ، لكنِّي لَـمْ أستسـلمْ أو أنهـزم كمـا اعتقـدْت، ولـم أحـتَجْ إلـى أيَّ وعـاءٍ مـادِّيٍّ آخـرَ لأُودعَ فيـه جوهري، هربتُ مِنَ المـوت وعـدتُ إليـكَ، جئتُكَ مُتَرَبِّصـًا في جَسَـدي، رغم اختلافهِ... ورغم رائحة الفورمالين النفَّاذة التي عشَّشَتْ وقتـًا طـويلاً في حنايـاه، رحـتُ أتَعَلَّـمُ مِنْـكَ المكائـدَ وأَحوكهـا سِـرّاً، ثـمَّ أُرَبِّـي في أنـاةٍ الضَّغينَةَ التي دسستَها يومـًا بيديكَ فيَّ، أثقُ دومـًا بكـوني سـأنالُ منكَ عنـدَ نهايةٍ ما.

لا أُخفي عنك أنَّ الوقفَة تتعبني أحيانـًا فـأموتُ قليـلاً لأسـتَريح، أنزَلِـقُ داخلـي، برفـقٍ، بخفَّـةٍ، أطفـو وكـأنْ لا جاذبيـة، أنتشـرُ وكـأنْ لا حـدودَ لوجودي، أغفو هنالكَ في الحيِّز شديد الكثافة، شديد الإضاءةِ، والذي لنْ تتمكَّنَ حتَّى مِنْ تصَوُّرهِ، ومن ثمَّ أعودُ إليكَ، أقوى، أعتى، وأكثرَ رغبـةً في الانتقـامِ، أنـا أوسـعُ مـن جسـدي المحـدود وأنـتَ أضـيقُ مـن نظريَّاتـكَ المضحكة، ومع ذلكَ فإنَّني أخشاها، أخشى أيَّ احتمالٍ قد يُمكِّنكَ من أن ترجعَ يافعـًا في غفلةٍ منّي... أخشى حقّـًا ألا تهلك.

تسألُ نفسـكَ أيـنَ أعيش؟ طيِّـب سأشـرحُ لـكَ، أعيشُ في ذاكـرتي أيُّهـا المحترم هنالكَ حيثُ خَفْق الأجنحة... قرقعةُ الحصى.... ظُلْمَةُ الكهوف

وتلامس الأجساد الحانية، في الوقت الذي تعيشُ فيه أنتَ في رائحتي النتنة حيثُ أبحاثك تلهثُ بمعادلاتها وقوانينها وأرقامها واستنتاجاتها لخلق الحياة مِنَ الموت، في الحقيقة لا أعلَم إنْ كَانَت هذي الـ«حياة» ثمينةً بما يكفي للتَّضحية بحياتي أنا وبحياة أبنائي، لا أعلمُ إن كانَ ما أعيشهُ الآن شكلاً آخر متحوِّراً أو متطوِّراً أو منفصلاً عنها، كلُّ ما أعلمهُ هو أنَّك لا تختلفُ عنِّي كثيراً بلحمي المُجَفَّف الذي ما زالَ يكسو عظْمًا ناشِفًا، بالصَّرخة الجَامِدَة بينَ الفكَّينِ، برائحة الفناء تنزُّ مِنْ عينيَّ.

أتَذكرُ وقتَ لمحتُكَ أوَّلَ مرَّةٍ؟ التَقَتْ أعيننا بطريقةٍ صادمةٍ، لا أعرفُ ما انتابَكَ حينها، لكن عن نفسي فقدْ بدوتَ لي كائنًا غضّاً، لا مخالبَ في قدميكَ المُسَطَّحتَينِ، لا أنياب في حلقكَ، ولا فَرْوَ يكسو جلدَكَ النَّاعم، أثرتَ في موجةً هائلةً من التَّعاطفِ، لَمْ أَكُنْ جائعًا بما يكفي لأُضطَرَّ إلى مهاجَمَتِكَ، في الحقيقة كنتُ أعاني وقتها حسرةً وجوديَّةً بدأتْ قبلَ لقياكَ بأشهرٍ، تضحك! حسنًا اضحك، لكنِّي أؤكِّدُ لكَ أنَّ ما عانيْتُهُ من أفكارٍ قَادَني نحو الصَّوم عن أيِّ شكلٍ من أشكال الصَّيدِ، رحتُ آكلُ من بقايا طرائد الآخرين كأي ضبعٍ لا كرامةَ له، أُحيطُكَ علمًا يا صاحبي أنَّ من عادة الذئاب ألا تأكلَ الجيفَ على الإطلاق... واضح؟ القضيةُ كلُّها ناجمةٌ عن سببٍ لن تتفهَّمَهُ، فقد نَشَأتْ بيني وبينَ شَيْهَمٍ صداقَةٌ لَمْ تَقبلها حتَّى الطَّبيعة، كانَتْ أشواكُ الشَّيْهَم كالسِّهام المسنونة لكنْ لَمْ يستخدِمها يومًا ضِدِّي، فقد أقامَ طويلاً في جحرٍ قريبٍ من وكري، حيثُ المكانُ

حولنا يَزخرُ بوفرةٍ من الجذور والدَّرَنات والأعشاب البرِّيةِ، وفي المقابل فقدْ كنتُ أحميه إذا ما خَرَجَ ليلاً يتسقَّطُ مأكلاً، لقد دافعَ واحدنا عن الآخر سنواتٍ طوالاً، جعلتني أتفكَّرُ كثيراً في فطرتي، إذْ لِمَ يحصلُ صديقي على طعامه من الأرض بسلامٍ؟ ... ولماذا عليَّ أنْ أَقتُلَ لأعيش؟ ... لماذا لا أشبَعُ إلاَ مِنْ طعامٍ يتَألَّم... يتأوَّهُ... يئنُّ؟ تساؤلاتي العبثية كانَتْ مهينةً لحيوانٍ مفترسٍ مثلي لكنَّها تسبَّبتْ لي بكآبةٍ طويلةٍ، لا سيَّما بعدَ كل وجبةٍ يموتُ فيها على يديَّ أرنبٌ أو طائرٌ أو حتَّى سحليةٌ، لنَ تتقبَّلَ الفكرةَ بسهولةٍ... أدركُ ذلك... وأعلمُ كم يشقُّ عليكم الاعتراف بكائناتٍ تتساءَلُ سواكم على هذا الكوكب، المهم أنَّ ما حدثَ كانَ مخيِّبًا جدّاً للآمال إذْ لَمْ أَحْسَبْ يومًا أنَّ الطَّقسَ سيسوءُ، وأنَّ الأمطار ستشحُّ والطَّرائد ستنعدمُ، وستمسي أرضي القاحلةُ كيلومتراتٍ ممتدةً من الجوع والبرد والقسوةِ، كدتُ أقضي آنذاك لندرة الطَّعام، ومع ذلكَ فقد حرصتُ على الابتعاد عنْ رفيقي حتى لا يخونني ضعفي، ستتَّهمني بالحماقة ولا شك، ستضحك، وربَّما لن تُصَدِّق، لكنْ هذا ما حصل. صمدتُ طويلاً أمامَ نفسي إلى أنْ وجدتهُ في ليلةٍ أمامي، كانَ ضوءُ القمر باهراً، ومسلَّطًا بقوَّةٍ ما على خطاهُ المتهادية من بعيدٍ، جاءَ المسكينُ باحثًا عنِّي، تحامَلَ على وهنه ليطمئنَّ عليَّ، حتَّى الآنْ لَمْ أعرفْ كيفَ أكلتُهُ، لَمْ أكنْ أنا _أُقسمُ لكَ_ وإنَّما فطرتي الذئبية، الوحشُ الرَّاقدُ بحذرٍ تحتَ جلدي، شيءٌ شبيهٌ بالنَّوايا التي تُغَلِّفُ نظرتَكَ البلَّوريةَ وابتسامتكَ الرَّقيقةَ، إنَّها

السِّلسلةُ الغذائيةُ الحقيرةُ التي جعلتْ عينيه عالقتَين في بلعومي إلى ما بعدَ الموت.

وضعتَ في تلكَ الظَّهيرة لحماً أمامي وابتعدتَ، هل تتذكَّر؟ هيَّا حاولْ معي، أيقنتُ ساعتها وبمنتهى السَّذاجة أنَّ هنالكَ خيراً ما في تلكَ الطَّبيعة المعقَّدة، دنوتُ من الطَّعام ببطءٍ، سَحَبْتُهُ، خَطَفْتُهُ، وهرولتُ سريعاً نحو صغاري المنتظرين...

أكلوا بنهمٍ، وكأنْ لأوَّل مرَّةٍ، غمرتني سعادَةٌ مطلقةٌ، وشكرتُكَ بعواءٍ خافتٍ، أحدهمْ كانَ يغطُّ في غفوةٍ هانئةٍ، المبقَّعُ الضَّعيفُ، أكثرهمْ جوعاً، استسلمَ لأحلامهِ، غرقَ في هناءتِها، داعَبْتُهُ بفمي، لعَقْتُ وجههُ مراراً، حرَّكتُهُ، ودفعتهُ بقوَّةٍ نحو الوليمة، لمْ أعرفْ أنَّكَ وفريقكَ قدْ بتُّم خلفي، تسلَّلتُمْ بمكرٍ، لم تكنْ جائعاً حينما صوَّبتَ نحوي بندقيَّتَكَ، ولا حينما أحاطت بولائدي شباكك، لَمْ تَحْسَبْ أنَّ الشباكَ ستعصُرُهم، ستخنقهم، وأنتَ الذي أرَدتَهُمْ أحياءً، ذئابَ تجاربَ... فئرانَ تجاربَ... لا فرق، كلُّ ما يعنيك كانَ كائناتٍ حيَّة مثلك... تتألَّم... تتأوَّه... تئنُّ. لَمْ أكنْ قدْ متُّ لحظةَ غرَزَ الجرو المُبَقَّع في وجهي نظراته المتضرِّعة، كلُّ همهمةٍ أصدرها كانت ذبحةً في الرُّوح، شرعَ يعوي بلا صوتٍ ويلعقُ دمي الذي لطَّخَ قوائمَهُ، لا شكَّ في أنَّك تعلمُ أنَّ الواحدَ من صغارنا يولدُ أعمى وأصم، في تلكَ اللَّحظة الخاطفة أدركتُ أنَّهُ يراني، هل تتخيَّل ما يعنيه ذلك؟ هل تعي أنَّ المشهدَ الذي رآهُ لأوَّل مرَّةٍ كانَ الأخير؟ أيقدرُ قلبكَ أنْ يحيطَ بحجم

الرُّعب والمرارة التي ضخَّتها بضع ثوانٍ مرَّتْ كدهرٍ؟ عندها تحديداً متُّ حتَّى وقلبي ينبض، حتَّى وتوصيلاتي البيولوجية والحسِّية تعملُ بكفاءةٍ بمفهومكَ القاصر، ما زالَ صوتُ الصَّغير يَتَرَدَّدُ في مسمعيَّ، أعتقدُ أنَّهُ يُدَوِّي الآنَ في فضاءٍ ما... أكثر رحمة وأكثر عدالة، أتعرف... تحتفظونَ أنتم البشر بأشياء أكثرَ مِنَّا في طيَّات أدمِغَتكمْ، الحيل... الأساليب.... الذَّكاءات العديدة، نحنُ لا نحتفظُ إلا بصورٍ بعضنا بعضاً، روائحنا السَّاخنة، همهماتنا، مَلْمَسِ أَجْسَاد أبنائنا ولونِ شعرهم الخفيف في أوَّل النُّمو... نحنُ أغبى، بإمكانك الآنَ أنْ تضحكَ... اضحك.

***

حكايتي معكَ انتهتْ بعدَ تلكَ الليلة تماماً، حلمتُ خلالها أنِّي استفقتُ على رائحة موتك فأطلقتُ عواءً طويلاً، حرَّكتُ قوائمي على سبيل الاحتفالِ، وخرجتُ من بيتكَ مزهوّاً نحو بيتي، لكن أتعلم حتَّى في الحلم لمْ يكن الثَّأرُ لذيذاً... لم تكن الشَّماتةُ إلا سواداً إضافيّاً ينقِّطُ في سواد الرُّوح، غريبونَ أنتمْ أيُّها البشر قدْ يقتلُ أحدكم الآخر لشيء... لكلمة... لظن، أسبابكم حاضرةٌ دوماً لغسل ذنوبكم، كذباتكم هي الجمالُ الأخير الذي تغلِّفونَ بهِ ما في دواخلكم من ظلامٍ، في الصباح الأخير لم أستيقظ على موتِكَ كما تمنَّيتُ وإنَّما على لمسات طفلٍ نَبَتَ فوقي من العدَمِ، كنتَ قَدْ شَغَّلتَ لَهُ التِّلفازَ على برنامجٍ كرتوني عجيبٍ، مشاجرات قطٍّ وفأرٍ... ألاعيبهما... خدعهما... مغامراتهما، المدهشُ في

الأمر كانَ القطَّ الذي لا يموت، يسقطُ في الهاويات السَّحيقةِ، تنهالُ عليه الصُّخورُ والحيطان، يهوونَ على رأسه بالمطرقة، يأكلهُ القرشُ، يغرقُ في المحيط، يبتلعُ المسامير، والسُّمَّ أيضـاً، ولكنَّهُ لا يموت، لكـأنَّكم -أنتم البشرَ- مهووسونَ بالبقاء، تحاذرونَ ذكرَ الموت لصغاركم أو التَّلميح له بأي شكلٍ، تحاذرونَ اكتشافهم للكارثة، حضاراتكم الحديثةُ تنكرُ الفناءَ وبشدَّةٍ، الطِّفلُ الذي لَمْ يكتَرِثْ للفأر أو للقطِّ الذي لا يموت انشغلَ بي، وسألَ بأحرفٍ مقروضةٍ:

– وهل يخيفُ الذِّئبُ الحقيقيُّ يا جدِّي؟

– طبعـاً يـا حبيبي، إنَّـهُ شـرسٌ لاحـمٌ ومـن أكثـر الحيوانـات مَكْـراً وشجاعة

– حقّـاً.. ما أقواهُ!

تطلَّعَ إليَّ بدهشةٍ، لَمْ ينخدعْ بجمودي، تبادلنا نظرةً مطوَّلـةً، أمعـنَ في التَّفَكُّر، أحسَّ بي، أحسستُ بفورة أنفاسهِ، أدهشني ذلكَ التَّفاهمُ السِّرِّيُّ الذي نشأ بغتةً ما بيننا، لربَّما بدوتُ لهُ وحيداً... متحجِّراً، لربَّما لمْ تسعفهُ الكلماتُ ليصفَ ما لَمَسَهُ ولمْ يَرَه أو مَا رآهُ ولم يلمَسْهُ، طفوتُ وإيَّاهُ مع كلماتِكَ وهي تعيدُ ترتيبَ سماتي، دنا منِّي بعينيه ويديه وأنفه وأعصابِه، ارتعَشْتُ بفعل راحَتِه ليِّنة الملمس، وهيَ تجسُّ جلدي اليابس ببطءٍ شديدٍ، تتحرَّى فيه أيةَ حياةٍ، ثُمَّ تتَحَسَّسُ أسناني، تكتشفها، تعيدُ رسمَها، غطَّاني بوشاحه المخطَّط، زيَّنني بورداتٍ جلبها من المزهرية، طوَّحَ بي في

مكانٍ عميقٍ من نفسي، وهناك لَمَعَتْ بحرارةٍ صُورَةُ ولدي المخنوق، علا صوتُ أنَّاته المستغيثة، هدَرَتْ آخرُ أنفاسِه في صدري، وفاحَتْ رائحةُ الدَّم، أيقَنْتُ كمنْ صحا من سكرةٍ أنَّ أوانَ الانتقام قدْ حان، ليسَ غدراً كما سيخطرُ لكَ... فأنا أنتظرُ تلكَ اللحظة بوضوحٍ وعلانيةٍ غير مسبوقةٍ، تَحيَّنْتُ غيابَكَ أيُّها الجدُّ المجرمُ في الحجرة المجاورة، فَتحتُ فمي بأقصى ما استطعت، فركَ الطِّفل عينيهِ، هَتَفَ:

«الذئبُ يتحرَّك يا جدِّي».

دوَّتْ مِنْ بعيدٍ قهقهتكَ بِسُعارٍ شبيهٍ بما انتابَكَ يَومَ أطلقتَ النَّار صوبنا:

«مستحيل... إنَّهُ ميت».

رمقني بودٍّ، وعاودَ مداعبتي، كانت فرصَتي للثَّأرِ، اليدُ الغَضَّةُ في حلقي، تزحفُ، وتنبضُ بخفَّةٍ، تنطُّ من زاوية إلى أُخرى كجندبٍ ضئيلٍ فيما فكَّايَ ينتظران هدأتَها ليُطْبِقا بغلٍّ، ولكنَّ العينين الحارَّتين حمْلَقَتا مِنْ جديدٍ فيَّ... بتحدٍّ... بشجاعةٍ، لَمَحَ الصَّغيرُ الحياةَ في عينيَّ المتوهِّجَتَين، غمغمَ مذعوراً:

«لكنَّهُ ينظُرُ إليَّ».

جاءَهُ صوتُكَ متململاً:

«قلتُ لكَ قتلتهُ بيدي».

قوَّسَ فجأةً حاجبيه واستراحتْ تعابيرهُ المنمنمة، طوَّقني إثرَ تأكيداتكَ بيديهِ، دمدمَ:

«أنتَ بطلٌ يا جدِّي».

ثمَّ عانقني وهتف:

«لقدْ أحببتهُ».

أحَاطَتْ ذراعاهُ جسدي بحنانٍ مهولٍ، تضاءَلتُ بينهما، ما أشدَّ ضآلة أي شيءٍ أمامَ الحبِّ، آمنتُ عندها يا صديقي أنَّني حيٌّ... حفنةُ عاطفةٍ لا تموت... خلاصةُ روحٍ مركَّزةٍ، أخْمَدَ عناقُهُ فورَتي، أطفَأ نبضَ النِّقمة بلمسةٍ واحدةٍ، أحسَسْتُ بمشاعرَ لا تُفَسَّر، أثمنَ بكثيرٍ من معادلة الفناء والبقاء التي أغرقتني معكَ فيها، في الواقع كادَت الجملةُ التي شكَّلَتْ نفسها في حنجرتي أنْ تُفْلِتَ منِّي:

«أنا نادمٌ على سنوات الغلِّ... أنا آسف».

ابتسَمْتُ لهُ منتشيًا، مطمئنًّا، استسلمتُ لَهُ، استكَنْتُ، تركتكَ «وإلى الأبد»، ثمَّ تهاويتُ بسلامٍ في داخلي... موقنًا أنْ لا مخالب في قدميه... ولا أنياب في حلقه ولا غلٌّ يكسو قلبَهُ النَّاعم.

المحتوى

توطئة..... 3
دانتيل أحمر 7
قطعةُ لحمٍ 19
نَحت..... 24
مُهرِّجٌ في شارع المشاهير 30
مقعدُ المتفرِّجين..... 35
الرَّكض على حافَّة العالم..... 43
نصف قلب منخور..... 49
عن الأزرق 57
الغابةُ لا تموتُ دفعةً واحدةً 65
كفُّ الصُّوف المشمشي..... 72
فكرة مهجورة..... 77
بابُ السَّماء..... 80
اسمهُ الحب 86
اختفاء..... 90
امرأةُ الثَّلج..... 93
قَواقِع..... 98

انسلاخ 103
دبُّوس شعر 107
امتدادات 113
ميثوزيلا 116

وجدان أبو محمود

نحت

التفتَ إليهنَّ محتدًّا، لم يكنْ هنالكَ أحدٌ، فالنُّسوةُ قد عُدْنَ إلى صُورَهنَّ المعلَّقةِ على الجدارِ، تجمَّدَت الوالدةُ تحتَ سلَّةِ على الكتفِ، وتَجَهَّمَت الزَّوجَةُ وهي تُعيدُ شَبْكَ يَدَيْها أمامها، البناتُ والأخواتُ الواجماتُ تصَنَّمنَ وصِرْنَ مناظرَ، ثمَّ تَفَسَّخَتْ ملامحهنَّ تدريجيًّا تحتَ طبقاتِ الغبارِ، وفجأةً انكمشَ، تضاءلَ، خَطا إلى الزّاويةِ بساقينِ ترتعدانِ، انزوى فيها دونما حراكٍ، رقدَ حيثُ يقفُ، ضمَّ إليهِ ساقَيهِ، تملَّى العنكبوتَ وهو يعيدُ لصقَ شبكتهِ بذراعهِ المطويّةِ، استكانَ له، حنَّطَ جسدهُ ثانيةً، وبالتّدريجِ... تماماً كما اعتادَ مذ تحوَّلَ آخرَ مرَّةٍ إلى كُرسيٍّ، ألصقَ ركبتَيهِ بصدرهِ، نكَّسَ رأسَهُ فوقهما، أنَّ بحرقةٍ، بكى، ومن خلفهِ راحَت الصُّورُ تتفرَّجُ بصمتٍ على لوحَي كتفيهِ المرتجفين .

الآن ناشرون وموزعون
ALAAN PUBLISHERS & DISTRIBUTORS
اتحاد الكتاب العرب - دمشق
9 789996 987014
الجمعية العُمانية للكتّاب والأدباء
THE OMANI SOCIETY FOR WRITERS & LITERATI